خلق الكون

بين

إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوي

صلاح أبو السعود

مكتبة النافذة

خلق الكون

بين إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوي

تأليف

صلاح أبو السعود

الناشر

مكتبة النافذة

خلق الكون بين إلحاد الأسطورة

وتوحيد الدين السماوي

صلاح ابو السعود

الطبعة الأولى: 2011

رقم الإيداع: 15548 /2010

الترقيم الدولي: 4 _ 240 _ 436 _ 977 _ 978

الناشر

مكتبة النافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المنشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ 39848568

محمول: 0123595973 فاكس: 37827787

Email:alnafezah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد ﷺ المبعوث لنا رحمة، الهادى لقلوب المسلمين إلى يوم الدين.

اما بعد:

قديماً كنت أطالع الأساطير وأضعها فى كفة عقلى مع الخرافات فلم تكن - بالنسبة لى - أكثر من خرافة، يتلقاها العقل على سبيل التسلية لمعرفة فكر الأولين، حتى طالعت ملحمة «جلجامش» ووجدت بها أخبار الطوفان، تلك الأخبار لتى ذكرتها النصوص التوراتية ونصوص القرآن الكريم، ومنذ ذلك العهد بدأت أنظر للأسطورة نظرة أخرى عن سابقتها.

ازداد شغفى بعد ذلك بدراسة الأساطير، ووجدت فيما يخص خلق الكون أن هناك تقارباً بين النصوص الأسطورية الفرعونية والسومرية والبابلية والسورية، ووجدت تقارباً آخر بين هذه النصوص من جهة، وبين نصوص الكتب السماوية - التوراة والقرآن - من جهة أخرى،فكان هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ.

ستجد فى هذا الكتاب عرضاً لأساطيرخلق الكون فى الحضارة المصرية القديمة، وفى حضارتى سومر وبابل، وأخيراً فى الحضارة السورية، وبهذا ننتهى من عرض قصة الخلق فى النصوص الأسطورية، والتى تستغرق الفصول الأربعة الأولى.

بعد ذلك نعرض لنصوص الخلق التوراتية كما جاءت فى سفر التكوين، ثم نعرض لنظرية الخلق كما جاءت بها النصوص القرآنية، وذلك فى الفصلين الخامس والسادس.

أما الفصل السابع والأخير فهو فصل ختامى يحمل نفس عنوان الكتاب «خلق الكون بين إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوى»، وعرضنا فيه لأوجه الشبه بين ما جاءت به النصوص الأسطورية وما جاءت به النصوص السماوية. ثم عرضنا لنظرية داروين فى النشوء والتطور، تلك النظرية التى خالفت - وبشدة - النصوص السماوية، ثم قمنا بالرد عليها، وبعد ذلك عرضت لأقوال من اطلقوا على أنفسهم «المجددون»، والذين حاولوا إخضاع النص السماوى لوهم العلم وإلحاد الأسطورة، وقمت بالرد على أقوالهم الواحد تلو الآخر. وفى النهاية عرضت سبب التقارب والتشابه بين النص الأسطورى والنص السماوى، وهو ما يمكن أن نسميه بالدورة العقائدية.

وفى النهاية أتمنى أن أكون قد قدمت للقارئ العزيز مادة جديدة، تثرى فكره وتجلى له بعض ما قد يغمض عليه.

صلاح أبو السعود

القاهرة 2009

Email: salahabosaud @ hotmail. com

الفصل الأول

أساطير الخلق المصرية

الفصل الأول
أساطير الخلق المصرية

مجتمع كالمجتمع المصري القديم تسيطر عليه الديانات الوضعية ، وتتعدد فيه الآلهة لدرجة يصعب حصرها ، وكان بمنأى عن فكرة الإله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء . مجتمع كهذا لابد وأن يتخبط عندما يحاول أن يضع تصور ما لتفسير نشأة العالم ، لذا فقد ظهرت عدة نظريات - وإن شئت الدقة «أساطير» -تحاول أن تضع تصورا للطريقة التي ظهر بها الكون إلى الوجود ، ورغم تباين هذه الأساطير في كثير من عناصرها إلا أنه يجمع بينها عناصر مشتركة ، وفي كل الأحوال نجد أن تأثير البيئة المصرية - نيل وأرض وسماء وشمس ... الخ - يظهر بصورة جلية عند صياغة هذه الأساطير أو التصورات ، وسنبدأ أولا بعرض العناصر المشتركة لهذه الأساطير على أن نعقبها بتفاصيل الأساطير والتي اختلفت من بلد لآخر .

1- العناصر المشتركة لأساطير خلق الكون :

كان من الصعب على المصريين القدماء - وقد أحاطت بهم البيئة بكل عناصرها المادية - أن يتصوروا - في أي مرحلة من المراحل - أن هذا

الكون المحيط بهم قد خلق من عدم ، فالعدم - في ذهنهم - لا يتولد عنه إلا العدم ، أما هذا الوجود المحيط بهم - وهم أنفسهم - يلزم لخلقه وجود مادة أولية يستطيع من خلالها الإله الخالق - رب الأرباب - أن يخلق منها هذا الوجود . فما هي هذه المادة الأولية ؟

سجل هيرودوت أسطورة تقول : إن منطقة الدلتا في عصره كانت فيما مضى بحرا ، ثم امتلأ تدريجيا بالرواسب التي يجلبها النيل، ولهذه النظرية أساس في الحقيقة الجيولوجية ، بيد أنه ليس من المعقول أن يكون المصريون أنفسهم قد رأوا تلك المراحل الأولى من الرواسب الغرينية ، والمؤكد تماما أن بعض الجزر الطينية برزت من مياه النيل ، وهذه المساحات الطينية سرعان ما امتلأت بأعواد الغاب المتموجة وبالحياة الحيوانية ، وكونت بلاد قدماء المصريين[1].

غير أن هناك فكرة رسخت في أذهانهم ، وهي أن الأرض نفسها وما عليها من الكائنات الحية قد خرجت من جوف الماء ، وقد ساعد المصريين على رسوخ هذه الفكرة البيئة التي عاشوا فيها ، فالأرض تختفي كل عام تحت مياه الفيضان التي تغذيها بالغرين الخصب .

وعلى هذا ، فقد اعتقد المصريون أنه قبل عملية الخلق كان يوجد فراغ لا حدود له ، فراغ مائي مياهه ساكنة وخاملة ، لا حراك فيها مطلقا ، تحيط فيه ظلمات مطبقة ، ولكنها لم تكن بظلمات الليل ، لأن الليل والنهار لم يكونا قد خلقا بعد .

(1) جورج بوزنر وآخرون - معجم الحضارة المصرية القديمة - الهيئة المصرية العامة للبكتاب - الطبعة الثانية - القاهرة - 1996- ص 25.

وقد أطلق المصريون على هذا السطح المائي المتسع أو هذا المحيط الأزلي أو المادة الأولية للخلق اسم «نون» ، ورغم أن «نون» كانت تنعدم فيه الحياة ، إلا أنه كان يحتوي على جميع عناصر الخليقة التي ستأتي بعد ذلك ، وهناك نص قديم يصور لنا كيف تم الخلق من خلال هذا المحيط الأزلي ، جاء في النص على لسان رب الأرباب :

«كنت بمفردي في المحيط الأزلي (نون) ، جامدا بلا حركة، ولا أجد مكانا اقيم فيه ... ولم يكن (ارباب) الجيل الأول قد وجدوا بعد (ولكنهم) كانوا معي» .

ثم قال رب الأرباب للمحيط الأزلي : «لقد كنت أطفو بين مياهك بدون حراك تماما ... وأن (شو) ولدى (الحياة) هو الذي أوقد ذهني ، وهو الذي جعل الحياة تدب في قلبي وجميع أعضائي» .

فقال المحيط الأزلي لرب الأرباب : «استنشق ابنتك (ماعت) وقربها من خياشيمك حتى ينتعش قلبك بالحياة ، ولا يجب أن تبعد عنك، ابنتك (ماعت) وابنك (شو) واسمه هو الحياة» .

وقال رب الأرباب : «أنا الذي خلق نفسه ، لقد صنعت نفسي وفقا لرغبتي . لقد جئت إلى الوجود بصفتي . لقد خلقت كافة الكائنات بعد أن جئت أنا إلى الحياة ، فالكثيرون هم من خلقوا وانبثقوا من فمي ، في الوقت الذي لم يكن هناك وجود للسماء ، ولا وجود للأرض ، ولم تكن التربة الصلبة قد خلقت بعد ، ولا الثعابين القائمة في هذا المكان ،

فخلقت البعض منها في المحيط الأزلي ، في حالة جمود ، حينما كنت لا أجد مكانا أقيم فيه»(1) .

وطبقا للنص السابق، نجد أن عملية الخلق قد مرت بعدة مراحل :

اولا: كان رب الأرباب وحيدا في حالة اتصال - بشكل ما - مع المحيط الأزلي ، ولم يكن ثمة آلهة معه .

ثانيا: نجد أن رب الأرباب قد بدأ في الحركة ، وقد ساعده على ذلك ابنه (شو) .

ثالثاً : بدأ رب الأرباب في توجيه كلماته إلى المحيط الأزلي «نون» والذي طلب من رب الأرباب أن يستنشق ابنته «ماعت» .

رابعا : يبدأ رب الأرباب في عملية الخلق .

والتساؤل الآن ، من هو «شو» ؟ ومن هي «ماعت» ؟ وما هو أول خلق ظهر طبقا لهذه الأسطورة ؟

«شو» هو إله الهواء ، وهو داخل ضمن تاسوع هليوبوليس المقدس(2) ،

---

(1) ديمترى ميكس وكريسيتن ميكس - الحياة اليومية للآلهة الفرعونية ترجمة فاطمة عبد الله محمود - مراجعة د. محمود ماهر طه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 2000 - ص 29 ,31.

(2) التاسوع فى اللغة المصرية «بسجت» وتعنى مجموعة من تسعة آلهة، تمثل معاً جميع القوى الأساسية فى الكون ولعل تاسوع هليوبوليس يمثل المجموعة التى نظمها قدامى كهنة مدينة هيلوبوليس الذين اهتموا غاية الاهتمام بتبويب وتنظيم آلهتهم فى ترتيب منطقى. فوضعوا على رأس تلك المجموعة «اتوم» وهو إحدى صور الإله رع، وهو الخالق الوحيد، وبعده أولاده مرتبين فى أرواج: «شو» الهواء أو الجو و «تفنوت» الرطوبة، وأحفاده «جب» الأرض، و «نوت» السماء، وأخيراً، إيزيس وراوزيريس ، وست ونفتيس.

أما «ماعت» فهي إلهة تمثل العدالة والاستقامة ، أو هي القانون والمعيار الذي سوف يسوس ويدين تناسق الظواهر الكونية .

ونرى أن المصريين القدماء – وفق التصوير السابق – يقولون :

إن أهم ما في هذا الكون هو الماء الذي هو المحيط الأزلي «نون» الذي خلق منه الكون ، ثم الهواء الذي أنعش رب الأرباب ، ورمزوا له بالإله «شو» ثم أخيرا العدل والاستقامة اللذان يجب أن يتصف بهما كل ما يحدث في هذا الكون ، ورمزوا لهما بالإلهة «ماعت» .

وأول خلق ظهر طبقا للأسطورة كان عبارة عن تل ظهر من وسط المحيط الأزلي المائي «نون» ، وقد أطلقوا عليه رسم «تاتنن» [1] ومعناه «الأرض التي تبرز» أو «الأرض المرتفعة» ، وتاتنن هذا يجسد الأرض الأولية التي انبثقت عند منشأ العالم.

وبعد أن عرضنا للعناصر المشتركة لأساطير خلق الكون يكون حري بنا الآن أن نعرض باقي الأساطير .

2- أسطورة هرموبوليس «الأشمونيين»:

كانت هرموبوليس القديمة "Hermopolis" مدينة في مصر الوسطى ، على بعد حوالي 300 كم إلى جنوب القاهرة ، وعلى مسافة قصيرة من الضفة اليسرى للنيل . وتسمى هذه المدينة اليوم الأشمونيين [2] .

---

(1) تاتنن: إله أرض قديم فى مفيس «منف» ويعنى اسمه «الأرض المرتفعة» وقد اندمج بعد ذلك، مع الإله «بتاح» وقد صور كرجل ملتحى يلبس تاجاً به ريشتين وقرص شمس وقرون كبش.

(2) معجم الحضارة المصرية القديمة – مصدر سابق – ص 347.

لم يبق من هذه المدينة سوى خرائب متناثرة بين النخيل والبرك حيث يمكن تمييز معابد تحوت والآلهة الثمانية الأصلية المكونة للثامون ، بصعوبة . وعلى مسافة قصيرة منها أجورا Agora، وعلى بعد ثمانية أميال شرقا وراء بحر يوسف ، تبدأ الصحراء وجبانة تونا الجبل [1].

ثامون الأشمونيين :

الثامون Ogdoad أطلق على مجموعة من أربعة أزواج ، تضم مبدأ ذكريا - وتمثله الضفادع - ومبدأ أنثويا - وتمثله الحيات - وقد كان لهذا الثامون الأثر الأكبر على تسمية مدينة «هرموبوليس»، فقد أطلق عليها الاسم المصري «خمنو» (أي مدينة الثمانية) ، الذي اشتق منه الاسم القبطي «شمون»، والاسم المصري الحديث «أشمونيين» [2].

وهذا الثامون أو الأزواج الأربعة تبعا لأسطورة الأشمونيين ، سبقت خلق العالم ، وسميت بهذه الأسماء : نون (Nun) ، ونونت (Naunet) وحح (Heh)وححت (Hehet)، وكك (Kek) وككت (Keket) و مون (Amun) وأمونت (Amunet)[3].

ويجسد نون ونونت بوتقة ما يسبق الوجود ، وجزء من الوسط الأولي أو الماء البدائي الذي خرج منه الخلق ، فهما منبع العالم[4] .

---

(1) السابق.

(2) السابق - ص 118.

(3) السابق.

(4) حول هذه الأزواج من الآلهة انظر: ايزابيل فرانكو - أساطير وآلهة (نفثات رع إله الشمس) - ترجمة: حليم طوسون مراجعة: محمود ماهر طه - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 2004 - ص - 99 - 100.

ويرتبط ححو وحجت بمفهوم اللانهائية .

ويعبر كك وككت عن فكرة الظلام ، فالكيان كك يشير في الوسط الأزلي إلى غياب الضوء الذي يتضح عن طريق ظهور الظل في العالم المحسوس .

أما آمون وأمونت فلا يمكن تحديد وظيفتهما، ولهما في بعض الأساطير مثل تنمو وتنموت وهما يمثلان على ما يبدو الفراغ الذي لا يصبح ملموسا إلا بعد ظهور المادة .

ولما كانت هذه العناصر (أو الآلهة) الثمانية قوى غامضة في عالم غير منظم (المحيط الأزلي) فقد اتخذت صور الضفادع والأفاعي ، أي المخلوقات التي خلقت نفسها بنفسها في المياه البدائية .

ويعتقد أن الثنائي آمون - آمونت المبجل في العاصمة المصرية كان يرجع أصلا إلى اسميهما الأشمونيين الذي اتخذ نموذجا لذلك الثنائي، وأسفرت تطورات النظام الديني التي صيغت حول آمون عن جعله الإله الأساسي في البلاد طوال عدة قرون، وساهم في تدخّله في التعاليم اللاهوتية التي كانت مستقلة قبل ذلك ، وكان التقريب بينه وبين سميه الأشمونينى أمرا لا مفر منه . ولذا فقد استخدم الثامون على نطاق واسع في صياغة نظرية طيبية حول نشأة الكون .

والحق أن الثامون لا يشكل في مجموعه كيانا خلاقا بمعنى الكلمة فهو ليس خالق العالم ، ويظهر إلى جانب هذا الثامون الوعاء الذي يحتوي على جوهر الخلق المنتظر المتمركز أصلا في مبدأ الضوء دون أن يكون هؤلاء الثمانية المبادرون بذلك، ويقوم الثامون المتجمع حول هذه البوتقة

بدور العامل المساعد الذي سيؤدي إلى تدفق الحياة الحقيقية - كما سنرى - من بيضة أو من زهرة اللوتس .

التفسير الأشمونيني الأول لنشأة الكون «البيضة» :

حسب معتقدات أهل هرموبوليس «الأشمونين» برز التل من بين أمواج المحيط الأزلي «نون» ، وتسلم أولى نفحاته من الرب الخالق (وهو تحوت في هذه القصة) ، وكانت بيضة غريبة غامضة ، هي أول بيضة رؤيت في العالم، ويبدو أن الثامون - السالف ذكره - أخذ يحتضنها ويرعاها حتى انكسرت قشرة هذه البيضة ، ويقال أنها خرجت منها أوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح ، فهي الشمس التي طارت صائحة ، ومن أجل ذلك سميت «الصائحة الكبيرة» فوق سطح الماء. فكان ذلك بمثابة الضوء الأول والصوت الأول الذي أضاء الظلام الدامس، وانطلق في ذلك الصمت الأزلي الذي خيم فوق العالم ، وفيما بعد عبر علماء اللاهوت عن الفكرة القائلة بأن «رع» نفسه هو الذي خرج من البيضة في فجر الزمن [1].

التفسير الأشمونيني الثاني لنشأة الكون «زهرة اللوتس» :

وهناك أسطورة أخرى منشؤها هرموبوليس «الأشمونين» أيضا، تقدم نشأة الشمس بطريقة تختلف عن سابقتها[2].

---

(1) ادولف إرمان - ديانة مصر القديمة - ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر و د. محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1997- ص 73- وانظر كذلك معجم الحضارة المصرية - ص 26.

(1) انظر السابق، وكذلك أساطير وآلهة - مصدر سابق - ص 102.

كان هناك برعم زهرة لوتس طاف فوق السطح المظلم للجة الأزلية «نون» ، يحبس الليل القديم داخل وريقاته التويجية المقفلة ، فانفجر نور قوي داخل البرعم ، أجبره على التفتح ، وبذا خرج الشمس الطفل . وفي الحال نشر أشعته على الكون ، وعندما خبا النور في المساء، أقفلت زهرة اللوتس وريقاتها ثانية حول ذلك النجم المضيء ، واحتفظت به لتطلقه ثانية في الصباح .

وتقرر بعض النصوص بأن أعضاء الثامون هم الذين أنجبوا زهرة اللوتس الأولى.

ولم تبق زهرة اللوتس قاصرة على وصف المرة الأولى ، فقد أصبحت نموذجا للخلق المتواصل عندما تولد الشمس المتجددة كل صباح من زهرتها، وفي كتاب الموتى يشبه المتوفى نفسه بالبرعم المنبثق من الماء : «أنا زهرة اللوتس النقية التي تنبثق كضوء يتبع فتحتي أنف رع» .

3 - **اسطورة منف :**

تقع منف فى مكان قرية ميت رهينة الحالية بمركز البدرشين ، وكان اسمها «من فر» وحرفها الإغريق «ممفيس» والعرب «ممف» .

تقول الأسطورة أن الإله «بتاح» [1] احد أعضاء ثالوث[2] مدينة منف -

---

(1) بتاح: هو إله مدينة منف، صُوِّر فى هيئة إنسان ملتف بثوب محكم الالتفاف بجسمه كما هى الحال فى المومياء. وكان بتاح فى أحيان أخرى يسمى «تاتنن»، وكان يمثل هنا على شكل إنسان براس عارية لا تحمل أية شارة خاصة، واضعاً يديه فوق صدره، وممسكاً بصولجان، واعتقد المصريون أنه خالق الفنانين وصانع الفخارين، فصار الصناع تحت حمايته، وكان كاهنه الأعظم يحمل لقب «سيد أساتذة الصناع»، ومثل الإغريق بتاح بالإله «هيفايستوس».

(2) يتكون ثالثوث مدينة منف - كما هو واضح من اسمه - من ثلاثة آلهة: بتاح وزوجته «سخمت» وابنهما «انفرتيم».

الذي ضم مبادئ الخلق في شخصه ، صنع العالم المنظم بفعل قلبه هو نفسه ، الذي استوعب فكرة الشيء الذي يخلقه ، وبفعل لسانه الذي نطق بهذه الفكرة ، أقام بدايات الخليقة بكلمته ، إذن فهذا خلق بواسطة الكلمة التي خلقت كل قوى الحياة وكل ما يؤكل وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان ، وعلى ذلك فأدوات الخلق عند بتاح تتمثل في قلبه ولسانه .

جاء في وثيقة منف اللاهوتية[1] : **«وتبدت كل كلمة للإله وفقا لما تصوره القلب وأمر به اللسان ... وهكذا خلقت كل الأعمال وكل فن ، ونشاط الأيدي ، وخطوات السيقان ، وحركة كل عضو ، وفقا للأمر الذي دبره القلب وعبر عنه اللسان ، والذي ينفذ كل شيء (فبتاح) خالق كل شيء ، الذي أوجد الآلهة ، لأنه هو الأرض التي ترتفع ، وهو الذي أنجب الآلهة ، وهو الذي ينحدر منه كل شيء : الغذاء ، والقوت ، والأضاحي الربانية ، وكل شيء طيب . وهكذا يتم الاعتراف بأن قدرته أكبر من قدرات كل الآلهة ، ولذا أضحى بتاح راضيا ، بعد أن حقق كل شيء وكل كلمة للإله»** .

4 - أسطورة طيبة :

هناك ارتباط من نوع ما بين هذه الأسطورة وأسطورة الأشمونين ، فقد ظهر «آمون»- إله طيبة المحلي - هو وشريكته «آمونت» في أسطورة الأشمونين باعتبارهما أحد أزواج الثامون (ارجع إلى أسطورة هرموبوليس) اللذين لعبوا دورا لا ينكر في خلق العالم .

---

(1) أساطير وآلهة - مصدر سابق - ص 105.

وطبقا لأسطورة طيبة[1] والتي تفسر خلق أو نشأة الكون : فقد ظهر ثعبان في المحيط الأولى «نون» ونشأ في طيبة حيث انبثقت الأكمة الأولية، واستهل هذا الثعبان المسمى «كماتف»، ومعناه الحرفي «الذي أكمل زمنه» عملية الخلق وإن لم يكن أصل العناصر، وعندما انتهى زمنه ترك مكانه لـ «إرتو» وهو أيضا على شكل ثعبان ، وعكف الأخير على خلق الكون فأنجب الأرض ومعها كذلك أعضاء الثامون ، وسبح هؤلاء حتى هرموبوليس «الأشمونين» حيث أنجبوا الشمس ثم بلغوا «منف»و «أون» حيث أنجبوا بتاح وأتوم ، ويتيح ذلك التدخل في النظم الدينية المصرية الموغلة في القدم إخضاع الآلهة الكبار لآمون .

وبعد أن أنهى الثمانية مهمتهم عادوا إلى طيبة وقد أنهكوا قواهم وانضموا إلى «كماتف» و«إرتو» في سباتهما العميق تحت أكمة جامي ، وأقيمت في ذلك الموقع عبادة الأشكال الأولى لآمون الذي كان يعبر النيل كل عشرة أيام لكي يصون رمزيا حياة أسلافه الكامنة الذين راحوا في سبات عميق .

5 - أسطورة اون « هليوبوليس»:

أون هو الاسم الانجيلي للمكان الذي أطلق عليه قدماء المصريين «أونو» واليونان «هليوبوليس» أي «مدينة الشمس» وهذا لعلاقتها بإله الشمس «رع»، والاسم اليوناني هو الذي ما يزال حيا .

وتقول أسطورة هليوبوليس: عندما تكوَّن إله الشمس -وهو هنا أتوم - في المياه الأبدية «نون» قبل أن تتكون السماء والأرض ، وقبل أن تخلق

(1) حول هذه الأسطورة انظر: المصدر السابق - ص 111، وديانة مصر القديمة - ص 109.

الدورة أو العلقة ، لم يجد مكانا ما يقف فيه، فوقف فوق تل، ثم صعد فوق حجر الـ «بن بن» في هليوبوليس . وبعدئذ وجد نفسه وحيدا وفكر في أن يخلق له رفقاء فحمل من نفسه، وبعد هذا الحمل تفل، فكان الإله شو «الجو» والآلهة «تفنوت» الرطوبة، والأسمان مشتقان من كلمتين قديمتين بمعنى (البصق) الكلمة الأولى : إشش ، والثانية : تف [1].

وأنجب شو وتفنوت الإلهين : جب إله الأرض وتوت إلهة السماء ، كما أنجب هذان الأخيران أوزوريس وست وإيزيس ونفتيس ، ثم تكاثر أبناء الزوجين الأخيرين ، وقد شكل هؤلاء التاسوع العظيم لهليوبوليس.

وقد إنزوت إلى حد ما شخصية «أتوم» الأولية نتيجة لتواجده في تاسوع هليوبوليس ، وللدور الرئيسي الذي قام به في هذا التاسوع، فقد تم ضمه إلى نظام لاهوتي لا يترك مكانا لأصل الفاعل الرئيسي.

ويرتبط «أتوم» حسب نظرية نشأة الكون في أون «هليوبوليس» بالإله «رع» ، ولا تذكر نصوص التوابيت مولد كوكب الشمس ، فهو لا يعد إلا كمكمل لأتوم ممثلا بذلك أداة الخلق المتألقة ، فظاهرة الضوء المصحوبة بالحرارة التي يبثها الإله الخالق تتضمن تواجد الشمس التي لم تخلق بعد في حد ذاتها . فالإشعاع الضوئي يظهر قبل أن يعين الإله الذي يكون باعثه ، ولن يكون هذا الأخير فعالا بشكل واضح في شكل الشمس إلا بعد أن تستقر عناصر الكون .

---

(1) حول هذه الأسطورة انظر: أساطير وآلهة ص 120 وما بعدها وديانة مصر القديمة - ص 104 وما بعدها.

وقد جاء في كتاب الموتى بشأن توزيع المهام بين الكائنين الأولين "أتوم" و «رع» :

انا أتوم بينمـا كنت وحـدي عندمـا اتيت من نون وانا رع في تجليـه المضيء عندما بدأ في حكم ما خلق .

إنه رع عندما راح يحكم ما خلق ، عندما بدأ يظهر كملك لما خلق بينما لم تتواجد بعد إعلاءات شو (فصل السماء عن الأرض) .

ويتميز الإله الخالق «أتوم» كمبدأ أصيل متواجد في نون قبل أن يحدث الخلق والشمس التي ينجم عنها الضوء ، والأمر يتعلق ببداية التحرك الإلهي ، إذ أن فصل السماء عن الأرض «إعلاءات شو» لم يكن قد تحقق بعد ، وعندما يصبح الكون أهلا للتحرك يتخلى «أتوم» عن موقعه لـ «رع»، فأتوم ليس سوى مبدأ ، بينما رع هو المحرك . ويمثل أتوم ورع وجهي الإله الخالق، إذ أن أتوم يجسد طاقة الخلق في حالتها المفترضة ، بينما يمثل رع الإنجاز والانتصار الباهر في الكون .

ولما كان أتوم ورع هما وجهي الإله الخالق ، فإليك هذا التصور عن نشأة الكون كما جاء في نصوص الأهرام ، والذي يخبرنا أن رع كان الإله الذي جاء الوجود ذات مرة ، حيث قام بالاستمناء في أون «هليوبوليس»، وأخذ عضو التذكير الخاص به في قبضته وهكذا خلق لذة الجماع منه، وهكذا ولد التوأمان «شو وتفنوت» ويقول رع : إنه حضن ظله أثناء هذا الفعل المميز «وصببت البذور في فمى بنفسى» ، وتشكل أبناءه ثم لفظهم للخارج ، وقدر لشو أن يكون رب الهواء ، وتفنوت ربة الضباب ، ويقول رع:

»اتى من إله واحـد ثلاثة آلهـة« ، ونتج عن هذا الحـدث وجـود الضـوء المباشر وتشتت العدم .

وفي ظلمـات المياه الأزلية أعـد رع لنفـسـه عين واحـدة ، وهي التي أرسلها للبحث عن شو وتفنوت ، وعندما عادت العين اكتشفت أنه أبدلها بعين أخرى فغضبت كثيرا ، فقام رع بتهدئتها وأعطاها قوة أكثر من العين الأخرى ، وهكذا أصبحت له عينان ، ولذلك جعل عينا واحدة للشمس والأخرى للقمر ، وحول عين الشمس إلى كوبرا واستخدمهما للدفاع عن نفسه من الأعداء، لذا كان ثعبان الكوبرا رمزا يضعه الملوك على تيجانهم لحمايتهم .

وقد ذكرنا آنفا أن شو وتفنوت أنجبا كلا من «جب» و «نوت»، وهما يمثلان العناصر المادية للكون ، الأرض والسماء ، ويقول بلوتارخ أنهما تزوجا سرا ، وأن الشمس التي ساءها ذلك القران ، طلبت من شو أن يفصل كلا منهما عن الآخر . وقد كان جب ونوت هما من أمدا الكون بسلالة من الآلهة والإلهات الذين أصبحوا يمثلون الشخصيات الدرامية لعالم الأساطير المصرية فيما بعد حيث نسجت حولهم الكثير من الأساطير .

6- اسطورة إدفو :

كانت إدفو مدينة هامة في مصر العليا ، وتقع على الضفة اليسرى للنيل على مسافة مئة كيلومتر تقريبا جنوبي الأقصر ، وكانت عاصمة الإقليم الثاني بالصعيد ، وكانت عظيمة الرخاء إبان الدولة القديمة ، وقد اكتشفت بقايا أقدم جباناتها تحت كوم بقرب المعبد الكبير.

وتدين إدفو بشهرتها إلى معبدها ، الذي اكتشفه ماريت، وتم ترميمه عدة مرات ، وهو يعتبر من أهم الآثار الفرعونية الدينية في مصر، ويبلغ طول معبد إدفو ١٣٧ متر، وعرضه ٧٩ متر ، وارتفاعه ٣٦ متر (ارتفاع الصرح)، ويعجب الزائر أشد العجب بكمال الحالة التي عليها الحفظ والصون. فصرحه وقاعات أعمدته وسلالمه وسقوفه كلها سليمة. وأمام المدخل مسلتان قائمتان ، كما توجد به تماثيل النذور التي يكتظ بها الفناء أما قاعة الأعمدة ، فيخال من يزورها أنه سيرى الكهنة في أثوابهم الناصعة وهم يتجولون أمام بهو الأعمدة .

ونصوص المعبد تصف المراحل الأصلية للخلق [1]، ولا تتخذ الركيزة الأولية التي نشأ على رأسها العالم شكل تل ، بل حزمة من أعواد الغاب (البوص) طفت فوق سطح المحيط الأصلي «نون» في فجر الخليقة استقر فوقها الصقر الأولى ، وهذا الطائر الإلهي ليس الإله الخالق الذي يمنحه الهيمنة على الكون، فهو الذي يوفر له وسائل دفع هجمات القوى المعادية للنظام الكوني والتي ظهرت في هيئة ثعبان.

وهكذا تمكن الصقر من الدفاع عن أرضه بفضل كيان يحميه ، اتخذ أحيانا صورة طائر كاسر مخيف ، وأحيانا أخرى شكل سلاح عبارة عن حربة، وتولت أربعة مخلوقات مهمة حراسة الجهات الأربع الأصلية على أن تسهر على الكون في شكل صقر ، وأسد ، وثور ، وثعبان ويمكن ربط هذه الحيوانات الأربعة مع كل من السماء (الهواء) وقوة الشمس (النار)

---

(1) انظر المصدران السابقان ومعجم الديانة المصرية القديمة - ص 27.

والأرض ، والماء ، وقد تكفلوا بأربع جماعات من الجن على صورتهم ، مما كان يزيد فعالية تلك القوى في مواجهة هجمات الفوضى .

7- اسطورة إسنا :

إسنا «Esna» مدينة في مصر العليا على الضفة اليسرى لنهر النيل وعلى بعد ٥٥ كم جنوبي الأقصر . وقد أخذ العرب الاسم القبطي (سنى) المشتق مباشرة من الاسم المصري القديم «تا - سنى» .

لا تذكر لنا النصوص سوى النذر اليسير عن إسنا في أيام الفراعنة : فكانت مركزا هاما للزراعة في الدولة الحديثة ، وقد أتى اسم هذه المدينة وآلهتها أحيانا ، وهم : خنوم ، الإله الكبش ، خالق الحياة - كما سنرى - ، وزوجتاه نيبوت «Nebut» سيدة الريف ، ومنحيت «Menhyt» ، الربة ذات رأس اللبؤة ، وكذلك تذكر النصوص المتأخرة ابنا اسمه حقا« Heqa »، والربة الشمالية العظمى (نيت) «Neith» التي خلقت الكون .

وقد بنى ملوك الأسرة الثامنة عشرة معبدا هناك، أعاد ملوك «سايس» بناء جزء منه ثم أكمل بطليموس السادس بناءه ، ولم يبق من المعبد سوى قاعة الأساطير .

وتصف النصوص المنقوشة على جدران المعبد كيفية خلق العالم وبدء الحياة . فتصف الإله الكبش «خنوم» بأنه فخاري صنع على عجلته كل صور الخليقة، من كائنات حية ، وحياة نباتية ومظاهر جغرافية بحتة في هذا العالم. وقد أضفوا عليه صفات آلهة أخرى بغية التوسع في خصائصه وتنويعها . وهكذا أسندت إليه كل عمليات التطور الحيوية :

فهو «فخراني الفخرانية» ابو الآباء وام الأمهات ، الذي خلق الكائنات العليا وخلق الكائنات السفلى ، ولا يتم اي عمل يدونه ، لقد اقام المدن وفصل القرى وخلق القطرين وثبت الجبال ، وصنع البشر بدولابه وانجب الآلهة ليعمروا الأرض ، ومدار المحيط العظيم ، وهو يأتي في اللحظة المناسبة ليمنح الحياة لكل من صنع بدولابه ، واوجد الكلأ لإعاشة كافة الحيوانات ، وشجرة الحياة من أجل الأحياء[1] .

وتصور الأسطورة الإلهة «نيت» كالأم الكبرى التي أنجبت الشمس والكون دون أن ينال ذلك من أعمال «خنوم» العظيمة ، ونيت إلهة خنثى تحمل صفات الجنسين معا ، شأنها في ذلك شأن كافة الآلهة الخالقة، وهي التي أنجبت الشمس وهي :

«أبو الآباء ، وام الأمهات ، الكائن الإلهي الذي بدا وجوده في البداية داخل المياه الأولية ، وظهر من تلقاء نفسه بينما كانت الأرض (لا تزال) في الظلمات ، ولم تظهر (بعد) اي ارض ، ولم ينبت اي زرع»[2] .

وبعد أن أنجبت هذه الإلهة الكوكب الإلهي ، وضعت الطفل الشمسي الوليد بين قرنيها لتحميه من الشر الذي يجسده «أبوفيس» .

وبعد ، نجد أن هذه النظريات أو الأساطير قد طرحت بعض النقاط الهامة التي كانت ضرورية لتعريف نظرية نشأة الكون المصرية. ففي جميع هذه النظريات نلحظ أن الخليقة ظهرت على مراحل ، فقد أوجد

---

(1)اساطير وآلهة - ص 108 .

(2) السابق.

الخالق النباتات والكائنات الحية ، خطوة خطوة، وفي ترتيب متغير. غير أن عناصر هذه الخليقة لم تكن مرتبة بحسب أهميتها، فكل ما خرج من يد الخالق أو من روحه كان على قدم المساواة مع غيره، لأن هذه النظريات عن خلق العالم لم تعرف فكرة النشوء والتطور .

ولم يتمتع الإنسان بمكانة ممتازة ، بل كانت حدوده ووظيفته كحدود ووظيفة الآلهة والحيوانات . فكان لكل واحد نصيبه وحقه. فكانت جميع المخلوقات ضرورية وما كان أحد أكثر أهمية من الآخر.

ولم يعتبر الإنسان هو مركز العالم إلا بعد قيام مدنية الدولة القديمة، وبعد أن خطرت تدريجيا أفكار إنسانية ببال بعض مفكري العصر المتوسط الأول ، واعتبر غرض الخليقة والعالم هو الإنسان، فالبشر هم قطيع الإله، ولذا حباهم بحظ ممتاز، فصنع لهم الأرض والسماء، وطرد عنهم المياه المهددة، وصنع لهم الرياح لتعطيهم هواء تتنفسه أنوفهم، لأنهم على صورته، ومصنوعون من لحمه ، وهو يضيء في السماء من أجلهم، وبنفس هذه الطريقة صنع لهم النباتات والحيوانات والأسماك ، لتكون طعامهم.

خلق البشرية:

إذا كانت الأساطير المصرية قد تعرضت بصورة مفصلة لمسألة خلق الكون فى عمومه، إلا أنها لم تقدم لنا لكثير عن كيفية خلق الجنس البشرى وقد رأينا كيف أن الإله «خنوم»[1] يشكل الكائنات البشرية - وكل

(1) ارجع إلى أسطورة «إسنا» السالف عرضها.

الكائنات الحية - بدولاب الفخرانى، ولكن الأمر كان يتعلق بتشكيل كل فرد على حدة، وليس ببث الحياة فى الجنس البشرى فى مجموعه.

إلا أن أحد النصوص قدم لنا تفسيراً فريداً لظهور البشر فى الكون، فتذكر أن البشر المصريون «رمت» أو «رمث» خلقوا من دمع «رميت» الإله «رع»، وتفصيل ذلك أن الإله «رع» أرسل ذات يوم عينه فى مهمة ما، ولكنها لم ترجع فأرسل «رع» لإحضارها كل من «شو» و «تفنت» فأغضبها ذلك كل الغضب، فبكى «رع» ومن دموعه كانت البشرية، وهنا نجد لعباً بالألفاظ بين «رميت» بمعنى دموع و «رمت» بمعنى بشر[1].

وكان البشر ينقسمون إلى أربعة أقسام: المصريين «رمت» أو «رمث» والليبيين «تمحو» وشرق مصر «أمو» ، والزنوج «نحسو»، ونلاحظ أن قدماء المصريين كانوا مثل كل الشعوب القديمة، يحسبون ما عداهم «برابرة» همجاً غير متحضرين، إذ هم البشر بمعنى الكلمة وأما ما عداهم فمجرد «مخلوقات بشرية»، ومن هنا كانت «رمت» تعنى البشر - عموماً وتعنى «المصريين» بصفة خاصة[2].

ويذكر كتاب الموتى صراحة: «كانت عينه مريضة لأنها كانت تبكى لكونها تظل بلا صحبة رفيقها، وكان حزن الآلهة ناجماً عن كبت وجدانى، فهى تشعر إلى حد ما بالوحدة، وبالأخص لأنها لم تعد تجد مكانها فى الكون[3].

---

(1) ديانة مصر القديمة - ص 77 - 68.

(2) د. على فهمى خشيم - آلهة مصر العربية - المجلد الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 2006 - ص 41. وقد قام الكاتب وبطريقة منطقية وهو فى سبيله لإثبات أصل المصريين العربى بالربط بين المصريين «رمث» وبين أهل «الرس» المذكورين بالقرآن الكريم.

(3) اساطير وآلهة - ص 168.

وحسب نصوص التوابيت يكون الآلهة والبشر من نتاج إفرازات الإله الخالق، وجاء على لسان الإله «أتوم» . «جئت بالآلهة من عرقى، والرجال هم دموع عينى». وتتبع الكيانات الإلهية من جسد أبيهم، ولكن هذه الكيانات الإلهية لا تنتج الكائنات البشرية التى تنتج من بكاء العين[1].

- إهلاك الثائرين من البشر وخلق السماء:

جاءت أسطورة إهلاك الثائرين من البشر وخلق السماء عن طريق كتاب «بقرة السماء»، وهو عبارة عن نص دينى نُقش على جدران مقبرة سيتى الأول، ومقبرة رمسيس الثالث، وعلى ناووس توت عنخ آمون. وتروى الأسطورة كيف كانت الآلهة تعيش مع البشر حتى تمردت البشر على الآلهة فقرر الإله رع إفنائهم إلا أنه عفا عنهم بعد ذلك، وترك الأرض وصعد إلى السماء حيث أنه لم يكن يتوقع من البشر أن تصدر عنهم مثل هذه الأفعال، تقول الرواية:

لقد حدث أن بسط رع سلطانه على الآلهة والبشر ، وبعد أن تقدم الزمن برع ودبت فيه الشيخوخة (ونلاحظ هنا أن المصريين في أساطيرهم قد شبهوا الآلهة بالبشر) فأصبحت عظامه من فضة ، وأعضاؤه من ذهب وشعره من اللازورد الحقيقي . لاحظ الناس ذلك ودبروا له سوءا ، ولكن نواياهم هذه لم تخف عن الإله ، وقال لأحد أتباعه : «ناد لي عيني» وكذلك «شو» و «تفنوت» و «جب» و «نوت» وكذلك كل الآباء والأمهات الذين كانوا معي عندما كنت في الماء (الأزلي) «نون»

(1) السابق.

... وعليك أن تقودهم إلى في صمت حتى لا يراهم الناس فتهرب فئدتهم ، وعليك أن تحضر مع هذه الآلهة إلى القصر [1].

«وعندما أحضرت هذه الآلهة إلى هناك ورأته ارتمت على الأرض أمام جلالته قائلة : تحدث إلينا لنسمعك . فقال رع لنون: أنت يا أقدم الآلهة، لذي منه خلقت ، وأنتم أيها الآلهة الأجداد . هل رأيتم بني الإنسان الذين خلقتهم من عيني كيف يأتمرون ضدي؟ أصدقونى ماذا أنتم صانعون بهم؟ لم أود قتلهم قبل أن أسمع منكم ما ستقولونه أنتم. فتحدث جلالة الإله نون فقال : ابني رع الإله الذي هو أعظم من أبيه وخالقه ، ابق أنت جالسا على عرشك فإن الخوف منك لعظيم، وخصوصا إذا ما صوبت عينك نحو المتآمرين عليك»[2] .

وعندما صوب رع عينه نحوهم هربوا إلى الصحراء وقلوبهم كانت تخشى عاقبة ما بدر منهم ، ولكن الآلهة نصحوا رع بعد ذلك أن يرسل إلى المتآمرين عينه لتبطش بهم ، فأرسل عينه التي نزلت إلى الأرض على هيئة الإلهة «حاتحور» ، ثم رجعت هذه الإلهة بعد أن قتلت البشر في الصحراء ، فحياها جلالة الإله رع قائلا: «أهلا بحاتحور» . فأجابته هذه الإلهة : وحياتك لقد كنت جبارة مع الناس وهذا يسعد قلبي [3].

ولكن رع خشى أن تبيد حاتحور في اليوم التالي البشر ، ولذلك قال : «نادوا لي على التور سلا مسرعين يجرون مثل الظل»، وفي الحال أرسلوا

(1) ديانه مصر القديمة - ص 75 , 76 - وأساطير الآلهة - ص 145 , 147 .
(2) السابق.
(3) السابق.

له رسلا من هذا النوع ، وقال لهم جلالة الإله رع : أسرعوا إلى اليفنتين وأحضروا لي كثيرا جدا من «الديدي» ، (ويبدو أنها مادة تصبغ إلى اللون الأحمر) وأعطوا هذه الديدي إلى الإله «ذي الضفيرة في هليوبوليس» وقام هذا الإله بطحنها على حين قامت خادماته بتحضير الجعة (البيرة) من الشعير ، وخلطوا بعد ذلك الديدي مع الجعة فأصبح سائلا يشبه «دم البشر» فملئوا ٧٠٠٠ أبريق من هذه الجعة ، وحضر الإله رع مع الآلهة ليروا هذه الجعة ، وعندما أصبح الصباح الذي ستقتل فيه حاتحور الناس قال : «سأحمي الناس منها، فاحملوا هذا إلى المكان الذي تنوي قتل الناس فيه» فنفذوا هذا الأمر وصبوا الجعة هناك حتى غمرت الحقول وارتفعت عنها بمقدار أربعة أمتار . وفي الصباح خرجت الآلهة ووجدت المكان مغمورا ورأت وجهها معكوسا على السائل بشكل جميل فشربت منه واستطابت طعمه وقفلت راجعة وهي ثملة فلم تتعرف الناس [1].

وأمر رع بإقامة احتفال كبير في المستقبل لهذا الحدث في مدينة هليوبوليس، وهو المكان الذي كانت تعبد فيه الإلهة حاتحور. وأكد رع لها ولتابعيه أنه سيكون هناك ثلاث زلعات من البيرة لكل جارية له تشارك في احتفالات العام الجديد. وللأجيال القادمة كان أتباع حاتحور يكافئون باحتفال بيرة سنوي.

لكن رع لم يكن سعيدا بما آلت إليه الأمور ، فقد أراد أن ينتقم من البشر ثم أوقف انتقامه حتى لا ينتهي الجنس البشري كله، ولكنه ما زال

---

(1) السابق.

متألما من البشر ، وكذلك فهو حذر من تورطه فيما فعل ، فإنه أدرك أنه لم يكن يستطيع السيطرة على ابنته ككبير الآلهة ، فأخبر نون : «لأول مرة فقدت أعضائي قوتها ولن أسمح لمثل هذا أن يحدث مرة أخرى»[1].

وإذا كان الإله العجوز قد حفظ بنى الإنسان من الهلاك إلا أنه لم يرغب فى البقاء سيداً على هذه المخلوقات الناكرة للمعروف ولقد قال متململاً «وبحياتى لقد تعب قلبى من وجودى معهم» وهنا تدخل «نون» العجوز فى الأمر ونادى على ابنته «نوت» الإلهة التى على شكل بقرة وجلس «رع» (الشمس) على ظهوها فرفعته وتكونت بذلك السماء، ولكن عندما ألقت «نوت» بنظرها إلى أسفل» ارتعشت من شاهق الارتفاع فنادى «رع» على الإله «شو» (الجو) وقال له: يابنى شو ضع نفسك تحت ابنتى «نوت» وخذها فوق رأسك فنفذ «شو» ما أمر به وسند منذ ذلك الحين بقرة السماء التى تلمع النجوم على بطنها وتتحرك الشمس فوقها فى قاربها هنا وهناك[2].

وهكذا انتهى سلطان «رع» على الأرض. وسبب رحيله - كما ذكرنا - راجع إلى تمرد جزء من البشر، وبفضل الأضطرابات بدأت الدورة التى انتهت ببناء العالم، الذى ستصبح سماؤه من الآن فصاعداً مجالاً لمسار الشمس، وبدأ بذلك عهد جديد تتحدد أيامه بظهور الشمس فى السماء، وحيث يؤدى البشر دورهم حتى إذا كانوا من المتمردين.

---

(1) السابق .

(2)السابق.

رع والقمر:

جاء فى النصوص عن القمر ونشأته «عندما كان رع يسكن السماء قال مرة: نادوا لى تحوت[1]. فأحضروه إليه فى الحال، فتحدث جلالة هذا الإله إلى تحوت قائلاً: **فلتكن أنت فى السماء مكانى فى تلك الفترة[2]، التى أضىء فيها الدنيا السفلى.. فأنت فى مكانى هذا كنائب عنى، ولسوف يدعوك الناس بنائب رع»[3].**

وهكذا اعتبر قدماء المصريين القمر هو المقابل للشمس رغم أنه ليس ساطعاً بالقدر نفسه، فهو العين اليسرى للإله السماوى الأعظم، ويتمحور جزء من النظرية اللاهوتية الخاصة بالقمر على دوره كبديل للشمس، وبصفة عامة يعهد بهذا الدور - كما رأينا - إلى تحوت وزير رع. وفقاً لما جاء فى النصوص، وقد كلفه الإله الشمسى بهذه المهمة عندما تخلى عن حكم الأرض وقد أصبح نائبه الليلى فى عصر الأهرام، فالملك المتوفى يكون فى آن واحد قمراً وشمساً، ويدور فى السماء ليلاً نهاراً، وقد جاء فى النصوص: **«أوناس يجوب السماء مثل رع، أوناس يعبر السماء مثل تحوت»[4].**



(1) تحوت: هو إله القمر المتخذ هيئة طائر أبى قردان، وقد عُبد تحوت فى عدة أماكن بمصر. وكان المركز الرئيسى لعبادته هو مدينة هرموبوليس.

(2) فترة الغروب، وكان المصريون يعتقدون أن الشمس فى فترة الغروب كانت تنزل العالم السفلى.

(3) انظر - ديانة مصر القديمة - ص 76 ,77.

(4) أساطير وآلهة - ص 56.

الفصل الثانى

أساطير خلق الكون السومرية

الفصل الثانى
آساطير خلق الكون السومرية

سومر:

تقع بلاد سومر القديمة فى النصف الجنوبى من العراق الحديث، بدءا من بغداد شمالا حتى خليج البصرة جنوبا، وكانت تضم عدة مدن: إريدو (أبو شهرين الحديثة)، وأور (المقيّر الحديثة) وأورك أو إيريك (وهى المسماة فى التوراة إرك، والمعروفة الآن باسم الوركاء)، ولارسا (المسماة فى التوراة باسم إلاسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سبرلا الحديثة) ونيبور (نفر)[1].

واكتشاف سومر والسومريين أربك الباحثين فى تاريخ هذه المنطقة فقد عرف علماء العبرانيين والإغريق هذه البلاد باسم «بابل» التى كان سكانها ينطقون اللغة السامية (البابليين)، ولكن مع أعمال البحث والتنقيب عرف علماء الآثار أن البابليين لم يكونوا أول من سكنوا هذه البلاد، ولا أكثرهم خلقا وابتكارا، وإنما كانت حضارتهم امتدادا لحضارة

(1) انظر - ول ديورانت - قصة الحضارة - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - 2001- جـ 2 - ص 18.

هؤلاء الذين سبقوهم (السومريون) الذين كانوا يتكلمون لغة «مقطعية»، لا هى بالسامية ولا بالهندو - أوربية. وإلى هؤلاء السومريين يرجع الفضل فى وضع بذرة الحضارة فى هذه المنطقة من العالم[1].

وقد استوطن الإنسان بلاد سومر - التى أصبحت تعرف بهذا الاسم فى الألف الثالث قبل الميلاد - فى حوالى 4500 ق.م غير أن القوم الذين استوطنوها أول مرة لم يكونوا سومريين، بل قوم عرفوا فى علم الآثار بـ «العبيديين» الذين يعتبروا أول المزارعين الذين أسسوا عددا من القرى والمدن فى هذه البلاد[2].

أما السومريون أنفسهم فلعلهم لم يقدموا إلى بلاد سومر إلا فى الربع الأخير من الألفية الرابعة قبل الميلاد، وليس فى وسعنا - رغم ما قام به العلماء من بحوث - أن نعرف إلى أى سلالة من السلالات البشرية ينتمى هؤلاء السومريون، أو أى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر[3].

وعلى كل حال فعرض تاريخ بلاد سومر ليس هو مطلبنا فى هذا الكتاب، ولكن البحث فرض علينا أن نعرض نبذة عن هؤلاء السكان الذين أقاموا بهذه المنطقة فى فترة ما، وتركوا على أرضها تراثا لا يمكن أن يستهان به.

---

(1) انظر - كريمر - اينانا ودموزى -طقوس الجنس المقدس عند السومريين - سوريا - 1993 - ص 14.
(2) السابق - ص 15.
(3) قصة الحضارة جـ 2 - ص 19.

- بداية الخلق وفصل السماء عن الأرض:

تقول الأسطورة أن كل شيء كان في «نمّو» Nammu ، ونمو هي الإلهة السومرية الأم الأولى، والمعنى الحرفي لاسمها «ماء الأم» ، وهذا تشبيه صريح لولادة الكون بالولادة البشرية.واسمها يشير إلى المياه الأزلية - مثل «نون» عند الفراعنة - التي ظهر منها الكون والآلهة[1].

كانت «نمو» ساكنة، لكنها تحركت، وبدافع الحركة والسكون كان ظهور السماء والأرض، وكانا في حالة التصاق وعناق.والسماء في الأساطير السومرية ذكر يمثله الإله «آن»(An) ، وقد تزوج إلهة الأرض «كي» KI، وسُكبت الأمطار من السماء على الأرض - وكأنها المني، فالمطر هنا يأخذ مدلولا جنسيا - فينتج عن ذلك ظهور النباتات، ويسيل الخمر والعسل، وولد لهما الإله «إنليل» Enlil إله الهواء، وكلمة إنليل مكونة من مقطعين (إن) التي تعني السيد و «ليل» التي تعني الهواء أو الريح ويلقب بجبل الريح. بعد أن كبر إنليل فصل بين أمه وأبيه، فرفع أباه السماء «آن» إلى أعلى، وبسط أمه الأرض «كي»[2].

بعد ذلك جلس (آن) على عرش السماء، وترأس مجلس «الأنوناكي» Anunaki، وهو مصطلح سومري يشير إلى جموع الآلهة في السماء والأرض، ومعناه الحرفي باللغة السومرية «أرض بذور الحياة الأميرية»، وكان السومريون يعتقدون أن هذا المجلس أو هذه الهيئة عبارة عن طائفة

---

(1) انظر - إنجيل سومر - خزعل الماجدي - الأردن - 1998 - ص 13، والأساطير السومرية - لصموئيل كريمر - ص 65.
(2) إنجيل سومر - ص 14.

من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت، وهم يديرون دفة العالم ويتحكمون به وفقا لخطط رسمت بعناية، ونواميس قدرت حسب الأصول، فهناك آلهة موكول إليهم أمر السموات والأرض والهواء والبحار، وآلهة موكول إليهم أمر الشمس والقمر والكواكب ...الخ، وكان أكبر الآلهة الذين يتحكمون بالعناصر الأربعة الرئيسية التى يتألف منها الكون :السماء والأرض والهواء والبحر، ويمثلهم الآلهة: آن، كى، إنليل، إنكى. وكانت وسيلة الخلق عندهم تقوم على استخدام الكلمة الإلهية، فكان كل ما على الإله الخالق - حسب معتقدهم - هو أن يرسم الخطط ويتفوه بالكلمة وينطق الاسم.

وهنا نجد أن فكرة العماء المائي أو الفوضى المائية تتكرر، فهذا العماء المائي أو المياه الأزلية أطلقوا عليها «نمو»، وفي الأسطورة المصرية كان «نون».

وإذا كان «إنليل» إله الهواء هو الذي قام بفصل السماء عن الأرض، فبالمثل وجدنا أن الإله «شو» - في الأسطورة المصرية - هو الذي قام بفصل السماء عن الأرض.

ويبدو أن الإله «إنليل» السومري كان مماثلاً للإله «رع» المصري الذي نسب إليه معظم عمليات الخلق، وتجدر الملاحظة أن الأساطير السومرية لم تنسب عملية الخلق لإله واحد، بل شارك في عملية الخلق - كما سنرى - عدة آلهة قام كل منهم بدور في عملية الخلق، وهذه الأدوار قد تنفصل وقد تتداخل فيما بينها، وهذا راجع بالطبع إلي الحادية الأسطورة، فعالم يعج بهذا الكم من الآلهة والتي كانت تتشابه في كثير من

صفاتها مع صفات البشر، عالم كهذا كان من الصعب عليه أن يتصور خالقاً واحداً له القدرة علي خلق كل عناصر الكون برمته.

وفي ترنيمة مرفوعة للإله «إنليل» نجد أن هذا الإله قد نسب إليه – ولكلمته – ديناميكية الكون، وسيره بطريقة منظمة بحيث قام كل عنصر من عناصره بالوظيفة المعهودة إليه بصورة أسبغ عليها طابع التسخير، بدءاً من تشييد المدن ووصولاً إلي ولادة البهائم. تقول الترنيمة:

بدون إنليل، الجبل العظيم.

لا المدائن شيدت، ولا المقار أسست.

لا الاصطبلات شيدت، ولا حظائر الغنم اقيمت.

ولا الأنهار مياهها العالية جلبت الفيض.

ولا البحر أعطانا مختارا كنوزه الوفيرة.

ولا سمك البحر وضع بيضه فى الأحواض.

ولا طيور السماء نشرت أعشاشها على الأرض الرحيبة.

لا الغيوم المحملة بالغيث فى السماء فتحت أفواهها.

ولا الحقول والمروج امتلأت بالحب الكثير.

ولا الأعشاب والحشائش فى السهول نبتت.

ولا أشجار الجبل الكبيرة فى البستان حملت ثمارها.

ولا البقرة وضعت عجلها فى الاصطبل.

ولا الغنمة ولدت حملها فى الحظيرة.

ولا الجموع الغفيرة من بنى البشر اضطجعت آمنة.

ولا البهيمة من ذوات الأربع ولدت صغارها.

ولا رغبت فى التناسل[1].

وتقول النصوص السومرية عن كلمة إنليل التى لا تتبدل:

كلمة إنليل...

تقارب السماء - فيكون الفيض.

من السماء ينزل الفيض إلى الأرض.

كلمة إنليل - تلامس الأرض، فتكون الوفرة.

من الأرض تصدر براعم الخصب.

حكمتك - هى الزرع، كلمتك هى الحبوب.

كلمتك هى الماء الغامر، حياة جميع البلاد[2].

والكلمة هنا هى ما عبر عنه الإغريق فيما بعد بـ (اللوجوس Logos) وأخذها عنهم القديس يوحنا فى إنجيل يوحنا، حيث يقول: «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله»(3).

وتظهر هنا الإشارة إلى أن كلمة إنليل هى الماء الغامر، وهذا يعنى أن الكلمة هى المطر الذى يعتبر أحد مظاهر الهواء، فالسحب يحركها الهواء ويمطرها، وهنا نجد أن الكلمة غير مجردة، فهى لها معنى محدد هو منىّ

---

(1) كريمر - طقوس الجنس المقدس - ص80.

(2) السابق - ص 81.

(3) إنجيل يوحنا - 1: 1.

إنليل (أى مطره) وفى ذلك ما يشير إلى تحول قوة الإخصاب الذكورية من إله السماء «آن» إلى إنليل[1].

وارتباط إنليل بالمطر والخصب يأتى من ارتباط المطر بالهواء والغيوم التى كان يمثلها إنليل، ومن المؤكد أن كهنته أضفوا عليه صفات الحياة والخصب لكى يجعلوا منه خالقا شموليا. ويظهر أقدم رموز إنليل فى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد على شكل مثلثين متقابلين من الرأس، ثم تطور إلى الفأس المزدوج الذى يشير إلى العمل والبناء وإلى القوة والسلطة أيضا[2].

وربما كان الإله «آن» إله السماء، يأتى على رأس الآلهة فى مطلع الألفية الثالثة قبل الميلاد، وربما ظل حتى ذلك الحين الإله الوحيد الذى يرعى شئون مدينة إيريك، وفى حوالى 2500 ق.م حل محله إنليل «إله مدينة نيبور أونفر»، وتربع على عرش كبير الآلهة، وربما كان هذا نتيجة لصراع سياسى فقدت فيه مدينة «إيريك» تفوقها على المدائن السومرية المجاورة[3].

ويقيم الإله إنليل فى مدينة نفّر (نيبور) التى تقع إلى الجنوب من بغداد حوالى مائة ميل، وهى تعتبر أول مدينة على الأرض فى أساطير سومر، كونها مدينة الإله إنليل، الإله القومى للسومريين، وفى هذه المدينة يشيد الإله معبده الكبير (إيكور Ekur) أى بيت الجبل. وتعتبر (نفر)

---

(1) إنجيل سومر - ص 16.

(2) السابق.

(3) كريمر - طقوس الجنس المقدس - ص 212.

العاصمة الدينية لسومر، وكان ينظر إليها وكأنها فاتيكان السومريين، إذ يحجون لها من كل المدن السومرية، ويصلون لإلهها وإلههم إنليل.وكان وزير وحاجب إنليل هو «نسكو» الذى هو «كلمة قلب إنليل وكاشف سره والمحيط بأوامره وعامل نواميسه المقدسة»(1).

ويعتبر نسكو (نوسكو) فى الأساطير السومرية ابن ووزير للإله إنليل، وتذكر بعض النصوص أنه ابن الإله (آن)، ويظهر فى النصوص السومرية والأكدية على أنه إله الضوء والنار وكان ذكره حاضرا فى التعاويذ الأكدية بشكل خاص باعتباره إلها مضادا للسحر الأسود، أى أنه كان يقوم بحرق السحرة والمشعوذين(2).

وكان يرمز له بالمصباح الموضوع على منضدة مرتفعة، وكان هذا الرمز يستعمل للتعبير عن إله سومرى آخر هو (الجيبيل) أو (كيبل) الذى هو إله النار أيضا وأحد آلهة العالم السفلى وكان اسمه الأكدى (جيرّا)(3).

- زواج إنليل وننليل:

اسم ننليل الحقيقى هو سود (Sud)أى الطويلة، وهذا هو اسمها قبل أن يتزوجها إنليل، أما بعد أن تزوجها فقد أطلق عليها اسم ننليل أى (سيدة الهواء). وتتحدر الإلهة «سود» من «نيصابا» إلهة الحبوب والكتابة، ومن الإله «خايا» أو «حايا» وهو إله الصوامع، وهذان الإلهان من شجرة الإله «إنكى» إله الماء والحياة(4).

---

(1) إنجيل سومر - ص 16 :18

(2) إنجيل سومر - ص 21، كريمر - الأساطير السومرية، وقاسم الشواف - ديوان الأساطير.

(3) المصادر السابقة .

(1) إنجيل سومر - ص 19 , 20.

وتقول الأسطورة أن ننليل كانت فائقة الجمال، وعندما رآها إنليل لم يستطع أن يتمالك نفسه من جمالها، فعرض عليها الزواج، وحاول أن يقبلها، فرفضت وأوصدت الباب فى وجهه، إلا أنه لم ييأس، فأرسل وزيره وحاجبه «نسكو» - ومعه هدايا كثيرة - كى يخطب له ننليل، وبالفعل يذهب نسكو إلى أوروك، ودخل «الإيزاجين» معبد الإلهة ننليل، وبالفعل توافق ننليل على الخطبة، ويمتلئ قلب إنليل بالسرور(1). تمت مراسم زواج إنليل وننليل، بعد أن أهداها هدايا لا يحصى عددها ونوعها، وبعد الزواج مباشرة منحها لقب «أشنان»، وأشنان هى إلهة الحبوب فى سومر، وقد منح إنليل هذا اللقب لزوجته «سود» لأنه يريد منها أن تسيطر على حقول القمح أو حصاده، ولذلك كانت «سود أو ننليل» توصف بأنها سيدة حب الحنطة عندما تذروه الرياح، أى عندما ينقى من القشور، ورمزها المعروف هو سنبلة القمح ذات الستة فروع، وذات الثلاث وريقات(2).

وبعد ذلك منحها إنليل لقب «نيصابا» Nisaba أو نيدابا Nidabaوهى والدة «سود» وهى إلهة البذور والحبوب، ثم إلهة الأعداد، وإلهة الكتابة، وإلهة الفلك، وإلهة الذكاء التى تفكر وتفتح آفاق التفكير لمن تحبه، وتظهر كإلهة للكتابة وهى تمسك القلم وكإلهة للفلك وهى تحمل لوحة النجمة ويعطى السومريون لنيصابا أهمية استثنائية، إذ يرون أنها نقلت الإنسان من التوحش إلى المدنية. وكانت تعبد فى مدينة (أوما Umma)(3).

---

(2) انظر - السابق - ص 21 :23.

(3) إنجيل سومر - ص 25 ، 26.

(3) السابق.

أما زوجها - كما ذكرنا - فهو الإله «خايا» أو «خانى» رب الكتابة وسيد الأختام، وكان يوصف بأنه إله الصوامع، وهو يقابل «نبو» البابلى، ولذلك وصفت نيصابا فى العصور البابلية بأنها رفيقة الإله «نبو»[1].

وقد منح إنليل زوجته لقب أمها نيصابا أو «ننبار شكونو» ليجعلها عارفة بالمحاصيل والحقول والمقاييس، وهذا يدل على أن الكتابة نشأت فى الأساس كحاجة من حاجات المعبد لعد المحاصيل وإحصائها[2].

وأخيرا توج «إنليل» زوجته بلقب «ننليل» الذى يعنى الاقتران المطلق به، فهو سيد الهواء والرياح وهى - بهذا اللقب - سيدة الهواء والرياح. وكلمة «Lil» عند السومريين تعنى المادة التى بين السماء والأرض، وكان هذا الجزء مظلم - من وجهة نظرهم - يضاء بالنهار بواسطة الشمس، وبالليل بواسطة النجوم والكواكب، وقد عبرت كلمة «ليل» أيضا عن الروح، باعتبار الروح هى النفس أو الريح التى تدخل وتخرج من أنفه، فكأن الإنسان يأخذ روحه من الريح أو من إنليل ولهذا فالكون حى بفعل (ليل Lil) وسيده إنليل وسيدته ننليل[3].

- فداء إله القمر والنزول إلى العالم السفلى:

تقول الأسطورة أن إنليل جامع زوجته ننليل داخل قارب، فحملت منه الإله «نانا» إله القمر، إلا أننا نجد أن الآلهة تتهر إنليل وتوصمه بالفسق، على الرغم أن ننليل زوجته، ولكن يبدو أن هذا الجماع قد تم بينهما قبل

---

(1) السابق.

(2) السابق.

(3) السابق.

أن تتم مراسم الزواج، على كل حال يصدر مجمع الآلهة قراره بنفى إنليل إلى العالم الأسفل، ويقوم إنليل بتنفيذ القرار، وتتبعه ننليل ولكنه يرفض أن ترافقه إلى العالم الأسفل، خاصة وهى تحمل فى أحشائها بذرة إله القمر، ولكن تصر ننليل وتتبعه إلى العالم السفلى[1].

وهكذا، نجد أن إنليل وننليل وهى تحمل «نانا» إله القمر، أصبح ثلاثتهم فى العالم السفلى، ولكى يكتب لهم النجاة كان لابد أن يحل محلهم ثلاثة آلهة، وبناءا على هذا الأساس يبدأ إنليل فى وضع خطة لنجاة ثلاثتهم من العالم السفلى، وعودتهم مرة أخرى إلى العالم العلوى.

يعلم إنليل أن ننليل تبعته إلى العالم السفلى، وكان دافعها فى ذلك حبها له، فيبدأ إنليل فى تنفيذ مخططه، فيتنكر فى صورة حارس بوابة العالم السفلى، فتسأله ننليل عن إنليل، فيعلمها أنه لم يره، وعرض عليها أن يجامعها حتى تلد إلها يكون فداءا لـ «نانا» إله القمر ابن إنليل، وبالفعل تستجيب له ننليل وتلد «مسلام تاى Meslamtaea» وهو الإله «نركال أو نرجال Nergal» ، وهو إله شمسى فى بدء حياته، إلا أنه أصبح بعد ذلك إله العالم الأسفل عندما تزوج أرشكيكال، وسيكون هذا الإله أحد بدائل الآلهة العلويين الثلاثة - إنليل وننليل ونانا - فى العالم الأسفل[2].

يستمر إنليل فى تنفيذ خطته للخروج من العالم الأسفل هو وننليل ونانا، فيتنكر فى صورة صاحب نهر الجحيم، وبالطبع لم تعرفه ننليل،

---

(1) كريمر - الأساطير السومرية - ص 70، وإنجيل سومر - ص 29 : 30.

(2) انظر - إنجيل سومر - ص 31.

فتسأله عن إنليل فيخبرها أنه أوصاه بها، ويقنعها للمرة الثانية أن يجامعها حتى ينجبا إله يبقى فى العالم السفلى بدلا من «نانا» إله القمر، وبالفعل تنجب إنليل الإله الثانى «ننازو Ninazu»، وهو إله مدينة «إنغير» على الفرات الأسفل بين لارسا وأور ومدينة أشنونا فى منطقة ديالى، وزوجته هى ننغريدا ابنة إنكى. وننازو إله مائى سفلى كان إله الطب والشفاء. وهو أحد آلهة العالم الأسفل، ويوصف أيضا بأنه ابن نركال وأرشكيكال. وكانت عبادته منتشرة فى مدينة ديالى «مملكة أشنونا» حتى عصر أور الثالث، وحل محله فيما بعد الإله تشابك[1].

وأخيرا - وبنفس الطريقة - يتنكر إنليل فى هيئة عبار نهر الجحيم، ويجامع ننليل وتلد له «اليجيبيل» لكى يفدى به أحد الآلهة الثلاثة العلويين، وهذا الإله الثالث هو إله النار فى العالم الأسفل، ويناظر إله النار «نسكو» فى العالم العلوى. وهذا الإله إله شمسى أيضا فى أصله وقد أعيدت عبادته بطريقة تثير العجب والتساؤل كإله عظيم تحت نفس الاسم عند الرومان (128 - 222)م، ويرى البعض أن هذا الإله السومرى هو نفسه الإله السورى الذى بدا وكأنه إله حمص وسوريا، وارتبط بالمجون والمعتقدات الشرقية القديمة، وكان مظهرا من مظاهر التوحيد فى الديانة الرومانية بوجهها السورى، وكان يسمى «اليجبال» أو «اليجبيل»[2].

فى نهاية الأسطورة يولد إله القمر «نانا» وينعتق إلى العالم الأعلى

---

(1) انظر - إنجيل سومر - ص32 ,33.

(2) السابق.

ومعه أمه وأبوه، ويقبع الآلهة الثلاثة (مسلام تاى، وننازو، واليجيبيل) فى العالم السفلى فداءا للآلهة الثلاثة.

ويبدو كل هذا الغموض فى تنكر إنليل والحمل المتواصل للإلهة ننليل بسبب الاعتقاد السومرى بأن الإله القمر يقضى النهار فى العالم الأسفل والليل فى العالم الأعلى، أى أنه إله علوى وسفلى، وأنه فى نهاية الشهر القمرى يحبس ثلاثة أيام ثم يطلع إلى الأعلى وكان السومريون يقومون بطقوس خاصة وأدعية وتعاويذ لإخراجه من ذلك العالم، فهم يعتقدون أن الأشباح والشياطين تهجم على زورقه وتسجنه فى العالم الأسفل لثلاثة أيام[1].

وللإله «نانا» فى السومرية لقب معروف هو «أشيم بابار» أو «أشكر بابر» وفى الأكدية «نمرصيت» ويعنى صاحب الشروق المشع وكان فى سومر يعرف أيضا بـ «سواين» وهو الاسم الذى صار مصدر اسمه السامى فيما بعد «سين»[2].

وكان الإله «نانا» يزور أبيه «إنليل» من وقت لآخر محملا بالهدايا ليطلب مباركته، فكان يرحل من «أور» مدينة القمر إلى «نفر» مدينة الهواء قاطعا بينهما عدة مدن، وهذا الجزء من الأسطورة يشير إلى العلاقة بين القمر والهواء أو النور والظلام، فالنور يزور الظلام بين وقت وآخر أو كل ليلة[3].

---

(1) السابق.

(2) السابق وسين هو إله القمر عند البالبليين.

(3) انظر - كريمر - الأساطير السومرية وإنجيل سومر - ص 36 , 37.

وكان للإله «نانا» معبد فخم فى «أور» هو معبد «إكشينوجال»، وله معبد آخر فى حرّان شمال وادى الرافدين.

ومما يلفت الانتباه في الأساطير السومرية - وعلي العكس من الأساطير المصرية - أن خلق القمر كان سابقاً علي خلق الشمس، بل إن إله الشمس «أوتو» كان ابناً للقمر «نانا».

- مولد إنكى وزواجه بننخرساج:

إنكى Enki أخو الإله «إنليل»، وهو الابن الثانى للإله «آن» إله السماء، وأمه «كى» إلهة الأرض. وإنكى هو إله الماء، ويوصف بأنه إله الحياة لأنه أب لكل شىء حى، وهو لذلك إله الطب والشفاء وهو إله الحكمة وإله السحر، ويشكل مع أبيه «آن» وأخيه «إنليل» الثالوث السومرى الأول. ومدينة إنكى المقدسة هى «أريدو» (أبو شهرين الحالية)، وهو سليل «أبسو» مياه الأعماق، ورمز الإله أنكى السومرى هو الجرة الكمثرية الشكل التى تنبع منها خطوط المياه، ويقابله فى الأكدية الإله «إيا» الذى كان اسمه الأكدى يلفظ فى الأصل «آ»، وربما لُفظ فى الأصل كـ «حيا» الذى يدل على الحياة، ويعتقد أن اسم الإله الحثى «آش» والاسم اليونانى «آوس» مشتقان منه[1].

يقول إنكى عن نفسه:

انا الرب، من إذا امر لا يسأل عن امره.

انا الأول من بين جميع الأشياء.

(1) إنجيل سومر - ص 38.

بأمرى، الاصطبلات شيدت، وحظائر الغنم سورت.

عندما قاربت الأرض، فاضت ينابيع.

وعندما قاربت مروجها الخضر.

تكدست الحبوب أكواما وتلالاً بكلمتى[1].

لكن إنكى لا يأتى بالمطر من السماء لإخصاب الأرض وحسب، وإنما هو يملأ الأنهار بالماء العذب الرقراق، تقول النصوص:

عندما رفع الأب إنكى عينه على نهر الفرات.

وقف بخيلاء كالثور الهائج.

رفع قضيبه، وقذف بالمنى.

فملأ دجلة بالماء الرقراق.

البقرة البرية تخور من أجل صغارها فى المراعى.

استسلم له دجلة كما لثور هائج.

رفع قضيبه ومعه هدية الزفاف.

جاء بالفرح إلى دجلة مثل ثور برى كبير عند الإخصاب.

الماء الذى جاء به ماء رقراق، نبيذه حلو المذاق.

الحبوب التى جاء بها، حبوبه غنية، يأكلها الناس.

ملأ «إيكور» بيت إنليل، بالمقتنيات.

---

(1) انظر - كريمر - السومريون - ص 171 - 183، وكريمر - طقوس الجنس المقدس - ص 81 - 83.

بانكى إنليل يبتهج، وتُسرّ نيبور[1].

بعـد ذلك - وبأمـر من الأرباب - يسكن إنكى مـدينة «دلمون»، وهى الأرض التى اعتبرها السومريون خالية من الشرور، ومسكونة من قبل الآلهة والخالدين من البشر، ويعتقد أن دلمون هى بلاد البحرين حاليا، وهى تشكل الفردوس السومرى، ولكنها لا تقابل مفهوم وحقيقة الجنة عند المسلمين، وذلك لأن العقائد الدينية السومرية لا تتضمن فكرة الثواب والعقاب، ومن ثم ذهاب المثاب إلى الجنة، بل نرى أن دلمون هى مكان الآلهة أولا، ثم هى مكان الخالدين من البشر مثل «زيوسدرا» السومرى و«أوتونابشتم» البابلى الذى يرد اسمه فى ملحمة جلجامش، فهو حين ينال الخلود من قبل الآلهة - بعد أن أنقذ الجنس البشرى والحياة من الطوفان - يوضع فى دلمون مكافأة له[2].

وفى أرض«دلمون» يتقدم إنكى إلى «ننخرساج» ليتزوجها، فترفض فى بادئ الأمر، لأنها رأت أن إنكى إله لعوب محتال ذكى، فألح إنكى ليتزوجها فرفضت مرارا ثم قبلت الزواج منه[3].

وننخرساج تعتبر إلهة الأرض كلها، وإلهة الخصب والحياة على الأرض، ولها أكثر من إثنى عشر اسم دال عليها، كل اسم فى حقيقة الأمر يمثل صورة أو شكلا جديدا من أشكالها مثل:

---

(1) انظر السابق - ويلاحظ أن المقطوعة صورت نزول الماء بمدلول رمزى جنسى.

(2) انظر - كريمر - من الواح سومر - اشار إليه خزعل الماجدى فى إنجيل سومر - ص 43.

ويرى البعض أن مدينة «دلمون» بهذا التصوير تعتبر أصل الأسطورة التوراتية حول فردوس عدن وما تم فيها - انظر السابق.

(3) إنجيل سومر - ص 43.

«دامكال نونا: زوجة الأمير الكبيرة»، و«ننكى: سيدة الأرض»، و«ننماخ: السيدة الكبيرة»، و«ننتو: السيدة الكبيرة»، و«مامى: الأم»، و«كاتوم دوك: إلهة الأطفال» و«بيليتى: سيدة الإنجاب»، و«دنكيرما: الإلهة الأم» و«ننمينا: سيدة القبعات الإلهية»[1].

بعد ذلك يتصل إنكى «الماء» جنسياً بننخرساج «الأرض» ومن الطبيعى أن ينتج من هذا الاتصال بين الماء والأرض ظهور النبات، لهذا تلد الإلهة ننخرساج الإلهة «ننسار» إلهة النباتات[2].

- إنكى يضاجع بناته:

بعد أن كبرت «ننسار» ابنة إنكى وننخرساج، يراها إنكى على ضفاف النهر - وهو لا يعرفها - فيود مضاجعتها، ويعرض الأمر على وزيره «إيسمد»[3] فيبدى له الموافقة، فيدعوها إنكى إلى قاربه ويضاجعها، فتحمل منه وتلد الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، وهذا يرمز للتماس بين المياه والنباتات بشكل متصل والذى ينتج عنه ظهور الألياف[4].

وبنفس الطريقة يشاهد إنكى الإلهة «ننمو» إلهة الألياف، ويرغب فى مضاجعتها، ويسهل له وزيره «إيسمد» الأمر، ويضاجعها إنكى، فتحمل وتلد الإلهة «ننكور» إلهة الأصباغ، التى تأتى من اتصال النباتات والألياف بالمياه، وترمز أيضا إلى سلسلة من التفاعلات بين الماء والنباتات[5].

---

(1) السابق.

(2) السابق - ص 44.

(3) إيسمد: وزير الإله إنكى، ويعرف هذا الإله بانه الإله ذو الوجهين أي القادر على رؤية الأمام والخلف، وهو الذى يتدبر أمر مضاجعات إنكى من بناته وحفيداته.

(4) إنجيل سومر - ص 44 - 64.

(4) السابق - ص 46.

وبعد ذلك يضاجع إنكى الإلهة «ننكور» لتلد بعدها ابنتها «آتو» إلهة النسيج، وهو أمر منطقى أن يأتى النسيج بعد الأصباغ، وكانت «آتو» رائعة الجمال، فتراها «ننخرساج» فتحذرها من إنكى: **«أيتها العذراء الغالية، ليكن طريقك مليئا بالنور وحياتك مرهفة هانئة عليك أن تبتعدى عن هذا المتقلب المحتال إنكى».**

وبالفعل، عندما يطلب إنكى من «آتو» مضاجعتها ترفض، وتطلب منه أن يقدم لها الهدايا وأن يتقدم للزواج منها، ويفعل إنكى كل ما طلبته منه، ويتزوجها، وتلد له ثمانى أشجار[1].

- إنكى يأكل النباتات السامة:

هذه الأشجار أو النباتات الثمانية والتى ولدتها «آتو» كان منها ما هو محرم، ومنها ما هو سام، إلا أن «إنكى» وجدها نباتات زاهية فأخذ يأكل منها، ولهذه الفعلة لعنته ننخرساج، فسرت اللعنة فى ثمانية أماكن من جسده، وسقط إنكى يئن من مرضه، ولذلك دب الخراب فى الأرض - فإنكى هو إله الماء - فاجتمع الآلهة وقرروا البحث عن «ننخرساج» والتى اختفت بعد لعنتها لإنكى - حتى تداويه من العلل الثمانى التى حلت به وإلا لن تقوم للأرض قائمة[2].

ترق ننخرساج لحال إنكى، وقامت بولادة الآلهة الثمانية ليقوم كل إله منها بشفاء علة من علل إنكى، فولدت «آبو» إله النباتات ليشفى عينيه،

(1) السابق - ص 48.
(2) انظر السابق- ص 48 - 51.

والإله «ننتلا» من أجل فكه، والإلهة «ننسوتو» زوجة «ننازو» أحد آلهة العالم السفلى من أجل ضرسه، والإلهة «ننكاسى» التى تشفى آلام الفم والتى تشبع شهوة القلب من أجل فمه، والإله «نازى» من أجل رقبته، والإلهة «ازيموا» من أجل ذراعه، والإلهة «ننتى» سيد الضلع من أجل ضلعه، والإله «اينشاج» من أجل ساقه، وبعد ذلك يتعافى إنكى ويصبح قادرا على القيام بعمله[1].

- خلق الإنسان:

تقول الأسطورة أن الآلهة بدأت تشعر بالتعب، فقد وجدوا أنهم تحولوا إلى عبيد الأرض التى صنعوها، وأن الحمل قد صار ثقيلاً، فاجتمعوا وقرروا أن يذهبوا إلى «إنكى» إله الماء والحكمة، ليشتكوا له وليخلق لهم خدما يقومون مقامهم فى حرث وسقى الأرض ورعى الماشية[2].

كان إنكى مضطجعا بعيدا فى (الأبسو)[3]، وكان نائما قرب (نمو) سيدة المياه الأزلية - وهى تظهر هنا كأم للإله إنكى - فاشتكوا إليها، فوضعت على راحة يديها دموع الآلهة وذهبت إلى إنكى وقالت له: «انهض يا بنى من فراشك... من مضجعك واصنع كل ما هو حكيم. اخلق خدما للآلهة يحملون عنهم عناء العيش وقسوة الحياة[4].

---

(1) السابق.

(2) إنجيل سومر - ص 138 : 142، وخلق الإنسان فى الملاحم السومرية للدكتور رشد فوزى، وقد أشار إليه المرجع السابق.

(3) الأبسو: مقر الإله إنكى.

(4) السابق.

وبعد أن فكر «إنكى قرر القيام بخلق كائن لا إلهى يقوم مقام الخادم للآلهة، ثم أخذ يعلم «نمو» كيفية خلق هذا الكائن: «امزجى الصلصال. لب الطين الموجود فى مياه «الأبسو» العميقة التى اقيم فيها وسأدعو الصناع الإلهيين المهرة ليكشفوا الطين ويهجنوه. أما أنت فعليك أن توجدى له الأعضاء وستعمل الإلهة ننماخ (ننخرساج)(1)، معك يدا بيد وستقف ربات الولادة الثمانية إلى جانبك لكى يتكون ويولد من الطين، قدرى مصيره يا أماه وستطبع عليه (ننماخ) صورة الآلهة. يكون شبيها بنا فى خلقه لكى يكون قريبا منا فى العمل والراحة ولكى لا يشعر بأنه غريب تماما عنا وسيكون هذا المخلوق هو: إنسان»(2).

تفتخر الإلهة «ننماخ» أمام الآلهة بأنها هى التى ستخلق الإنسان، وهى التى ستحدد الطيب من نصيبه أو السوء، فيقول لها إنكى «سواء جعلت نصيبه الطيب أو السوء فإننى سأوازنه، وليشاهد الآلهة خلقك وخلقى وليحكوا بعد ذلك على ما نصنعه»(3).

أخذت ننماخ حفنة من الصلصال الموجود فوق «الأبسو» وصنعت ستة أشخاص، الأول غريب، والثانى فيه عاهة، والثالث لا يستطيع إيقاف بوله، والرابع امرأة مشوهة، والخامس امرأة عاقر، والسادس الرجل الخصى. فأراد إنكى أن يختبر ما صنعته ننماخ، فقدم لهم الطعام،

---

(1) ننخرساج: زوجة الإله إنكى وهى آلهة ترتبط بخصب الأرض واسمها الآخر (ننماخ) . إنجيل سومر - ص 260.

(2) السابق.

(3) إنجيل سومر - ص 141.

فتناولت المرأة العاقر طعامها وكذلك فعل الرجل الخصى، فقرر إنكى أن يحدد لهما مصيرهما فقال «المرأة العاقر تكون وصيفة للملكة فى دار النساء، والرجل الخصى يكون فى خدمة الملك»[1].

ويجىء الدور على إنكى لكى يقوم هو بعملية الخلق، فصنع إنسانا بائسا أطلق عليه اسم «أومول» وهو الشيخ الطاعن فى السن والذى عيناه ذابلتان وحياته فانية.. وكبده وقلبه ويداه ترتجفان وقدم إنكى مخلوقه إلى ننماخ، فتحاول الأخيرة إطعام هذا الإنسان ولكن لم يقو حتى أن يمد له يداه، فنهرت ننماخ إنكى لأنه خلق بائسا، فجلب البوس إلى العالم، وخلق مريضا فجلب المرض - الذى سيلازم الشيوخ - إلى العالم، وتتدخل الآلهة لفض الاشتباك بين إنكى وننماخ، وقاموا جميعا بخلق الإنسان الصحيح من طين المياه العميقة، وبثوا فيه الروح، وخلقوا ذكرا وأنثى حتى يتكاثر من تلقاء نفسه فلا تتعب الآلهة من تكرار الخلق، فولد الذكر والأنثى أبناء كثيرين، وتكاثر هؤلاء بدورهم، وخدموا الآلهة، وكان الإنسان الضعيف يخدم الآلهة ويخدم الأقوياء من البشر، فزادت الشرور فى الأرض وكثر الظلم.

وردت فى بعض النصوص السومرية إشارات تجعل من الإنسان إله، ولكنه إله ضعيف أو مآله إلى الموت والفناء وقد سمى «لولو» الذى يعنى الإنسان البعيد، وكذلك وردت إشارات توحى إأن هذا الكائن هو بمثابة ابن الإله «إنكى»، ومن هذا المنطلق أثير الاعتقاد أن فكرة الأب الإلهى

---

(1) السابق - ص 144 - 145.

انطلقت من هذه الإشارة، حيث يظهر الإنسان وكأنه ابن الله، وهو ما ظهر فى العقيدة المسيحية[1].

ولمحت بعض النصوص الأسطورية الخاصة بخلق الإنسان فى الدين السومرى إلى خلق الإنسان بطريقة تشبه زرع البذور فى الأرض، وظهور البشر على الأرض نتيجة لهذا الزرع، وكان الإله إنليل هو الذى يقوم بهذا العمل، وذكرت أسطورة أخرى أن الإنسان كان حيوانا يمشى على أربعة ويشرب ويأكل كالخراف ولا يلبس الملابس[2].

- خلق اشنان ولاحار:

أشنان هى إلهة الحبوب، وهى تشبه إلى حد ما الإلهة الرومانية «سيرز» إلهة الحبوب والزراعة، وهى تقابل كذلك الإلهة «دميتر» إلهة الحبوب والحصاد عند الإغريق، وكانت عبادتها مرتبطة - فى سومر - بعبادة إلهة الأرض[3]. أما «لاحار» فهى إلهة الماشية والحظائر والغنم، وهما شقيقتان خلقهما الإلهان «إنليل» و«إنكى»[4].

وتصف الأسطورة حال العالم قبل خلق هاتين الإلهتين الشقيقتين. فتقول:

لم يكن هناك نعجة، ولا قُذِفَ بحَمَل.

لم يكن هناك عنزة، ولا قُذف بجدى.

---

(1) السابق.

(2) السابق.

(3) الحكمة فى وادى الرافدين - ص 219 - هامش 1.

(4) طقوس الجنس المقدس - ص 85. والسومريون - ص 220.

وهناك من يرى أن لاحار إله ذكر. إنجيل سومر - ص 149.

النعجة لم تلد حملين.

العنزة لم تلد أجداءها الثلاثة.

حبة الشش ذات الثلاثين يوما لم تكن وجدت.

حبة الشش ذات الأربعين يوما لم تكن وجدت.

الحبة الصغيرة، حبة الجبل، حبة المخلوقات الطاهرة لم تكن وجدت.

لم يعرف الأنوناكى أكل الخبز.

ولم يعرفوا لباس الحلل.

كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام.

ويشربون الماء من الجداول.

وفى تلك الأيام فى حجرة الخلق الخاصة بالآلهة .

وفى بيتهم المسمى دوكو خُلق لاحار وأشنان.

وما أنتجه لاحار وأشنان أكله الأنوناكى ولكنهم لم يشبعوا .

ومن حظائرهما شرب الأنوناكى لبن «شم» الطيب.

شرب الأنوناكى، ولكنهم لم يرتووا .

فمن أجل حظائرهما الطيبة الطاهرة.

أعطى الإنسان نفس الحياة[1].

وكما ذكرنا سابقا - عند الحديث عن خلق الإنسان - فإن الآلهة قد شعروا بالتعب، لذا قرروا خلق الإنسان ليعمل بدلا منهم ويوفر لهم الزاد،

(1) انظر المرجعان السابقان، وأدب الحكمة - ص 220 , 221.

لذا كان من الضرورى -- والحال كذلك - أن تنزل الإلهتين إلى الأرض.
تقول الأسطورة:

فى تلك الأزمان قال الإله إنكى للإله إنليل:

يا أبتى إنليل إنه لاحار وأشنان.

اللتين خلقناهما فى بيت الآلهة (الدوكو).

دعنا ننزلهما من بيت الآلهة.

وبكلمة إنكى وإنليل المقدسة.

هبط لاحار وأشنان من بيت الآلهة (الدوكو).

لقد انشأ (إنليل وإنكى) للإلهة لاحار الحظيرة.

وجعلا لها النباتات والأعشاب الوفيرة.

أما أشنان فقد أقاما لها بيتا.

وقدما المحراث والنير هدية لها.

لاحار واقفة فى حظيرتها.

راعية تزيد نتاج حظيرتها هى.

أشنان واقفة بين المحاصيل.

عذراء لطيفة وجميلة هى[1].

ثم تعمل الإلهتان على نشر الخير والرخاء بين البشر حتى أنعم فيهما كل بيت، تقول الأسطورة:

(1) السابق.

لاحار واقفة فى حظيرتها.

راعية تزيد نتاج حظيرتها هى.

أشنان واقفة بين المحاصيل.

عذراء لطيفة وجميلة هى[1].

الرزق الذى يأتى من السماء.

لاحار وأشنان كانتا من ورائه.

إلى المجتمع جلبتا رزقا.

وإلى البلاد جلبتا نسمة الحياة.

ناموس الآلهة توجهان.

ما ضمت المخازن تكثّران.

المخازن تملآنها إلى التمام.

إلى بيت الفقراء الذى يعانقه الغبار.

تدخلان وتجلبان الرزق.

كلتاهما، حيثما وقفتا.

جلبتا زيادة غزيرة إلى البيت.

المكان الذى تقفان تُشبعان، والمكان الذى فيه تجلسان تموّنان.

تدخلان السرور على قلب آن وإنليل[2].

---

(1) طقوس الجنس المقدس - ص 85.

(2) السابق.

كان الإلهتان تشربان الكثير من الخمر، وكثيرا ما كانتا تتشاحنان، فكل منهما تحاول أن تثبت للأخرى أنها الأفضل، وأنها الأجدى، فتقول لاحار أنها التى تطعم الآلهة اللبن والزبدة، وأن غلة أشنان تنمو فى الأرض بدون جهد، فترد أشنان أنها هى التى تزرع وتسقى وتحصد الطعام للآلهة، وأنها لولا غلتها ما أنتجت لاحار، وهنا تحكم بينهما الآلهة، فتعطى الحق لأشنان لأنها الأسبق فى العمل من لاحار، فتقنع لاحار بحكم الآلهة وتمضى الحياة متدفقة خصبة(1).

- خلق إيمش وإنتن:

بعد أن قرر الإله «إنليل» أن تثمر جميع أنواع الشجر وأن يهب البلاد رزقاً ورخاء عمد إلى خلق أخوين هما «إيمش» وهو الصيف، و«إنتن» وهو الشتاء، وقرر أن يعهد إلى كل منهما مهمته الخاصة به، تقول نصوص الأسطورة:

إنتن جعل النعجة تلد الحمل، والعنزة تلد الجدى.
جعل البقرة والعجل يتكاثران، والقشدة واللبن يزيدان.
فى القفار أدخل السرور على قلب الماعز البرى والغنم والحمار البرى.
طيور السماء جعلها تبنى اعشاشها على الأرض الرحيبة.
سمك البحر جعله يضع بيضه فى دغل القصب.
فى غياض النخيل والكرمة جعل العسل والنبيذ وفيرين.
الأشجار، حيثما زرعت، جعلها تحمل ثمارا.

(1) انظر - إنجيل سومر - ص 151، وادب الحكمة - ص 224 والسومريون - ص 220.

البساتين كساها بالأخضر، أخصب نباتاتها.

جعل الحب يتكاثر فى الأخاديد.

مثل أشنان العذراء اللطيفة، جعله يطلع قويا.

إيمش أيضا قام بمهمته خير قيام.

إيمش أوجد الأشجار والحقول، وسع الاصطبلات والحظائر.

المزارع كثر غلاتها، كسا أرضها.

جعل المحصول الوفير يدخل البيوت، وملأ العنابر إلى تمامها.

جعل المدائن والمساكن تشاد، والبيوت تبنى فى البلاد.

والمعابد تطاول الجبل.

يستنتج من النص السابق أن الأخوين «إنتن» و «إيمش» استطاعا فعلا ن ينجزا مهمتهما من أجل مد الأرض بأسباب الإنماء والرخاء والخير، ذا قررا الذهاب إلى «نفر»[1]، حيث مقام الإله إنليل لتقديم وافر الشكر ِالثناء وتقديم القرابين، فقد قام إيمش بجلب أنواع عديدة من لحيوانات، وأصناف من الطيور والنباتات كهدية ونذور، بينما قدم «إنتن» ماذج مختارة من المعادن الثمينة والأحجار والأشجار والأسماك كقربان نه إلى الإله إنليل[2].

---

1) نفر او نيبور: اقدس المدائن السومرية، مقام كبير آلهتها إنليل. وكان فى نيبور أعظم كاديميات سومر، وأكثر الألواح المكتشفة - حتى الآن إنما مصدرها من وحى الكتابة فيها.

- انظر - كريم - طقوس الجنس المقدس - ص 147.

2) السابق ، والحكمة فى وادى الرافدين - ص 227.

وقبل أن يصلا إلى إنليل اشتد الجدل بينهما، فكل منهم يريد أن يبرهن أنه الأفضل، وأن هداياه أفضل من الآخر، وعندما يدخلا على إنليل يبدأ إنتن بالشكوى فيقول:

يا أبتى إنليل قد عهدت إلى بشئون القنوات.

فجلبت مياه الخير.

وملأت صوامع الحبوب.

وأكثرت الغلة فى المزارع.

ومثل أشنان العذراء الرحيمة، جعلتها تنمو بغزارة.

لكن إيمش الذى لا يفهم شيئا فى زراعة الحقول.

قد زاحمنى بالمرفق والمنكب وفى قصر الملك[1].

ويقول إيمش ردا على ما قاله إنتن:

أى إنليل المعظم.

إننى عبدك وصنيعك.

وأنا الموكل على أشجارك وحقولك واصطبلاتك.

ولكن إنتن أنكر على ما فعلت[2].

ويصدر إنليل حكمه فيقول:

يسيطر الشتاء «إنتن» على المياه التى تجلب الحياة على الأرض، وهو

(1) إنجيل سومر - ص 153.

(2) الحكمة فى وادى الرافدين - ص 239 , 230.

فلاح الآلهة الذى يكدس الغلال، إيمش يا بنى كيف تقارن نفسك بأخيك إنتن[1].

وفى هذا تفضيل لفصل الشتاء على فصل الصيف، وهذا يرجع إلى المناخ الزراعى فى سومر، حيث كان فصل الشتاء هو فصل الزراعة الأساسى، وكان ينتهى هذا الفصل مع مقدم الربيع الذى يعتبر فصل الحصاد ويحتفل به فى احتفالات واسعة كرأس سنة جديدة[2].

وتقول الأسطورة فى نهايتها «إن كلمات إنليل السامية العميقة تنفذ إلى قرار كل شىء، حينها ركع إيمش أمام إنتن وجاء إلى بيته بالنبيذ والعنب والتمر، ومثلما نصر الآلهة «أشنان» نصروا إنتن لجهده العظيم فى زراعة الأرض، وهكذا قدم إيمش لإنتن الذهب والفضة وحجر اللازورد وفى نشوة الإخوة الصادقة سكبا الخمرة بكل سرور تمجيدا للإله وعقدا العزم على خدمته»[3].



(1) إنجيل سومر - ص 151.

(2) السابق - ص 153.

الفصل الثالث

أسطورة الخلق البابلية
الإنيوما إيليش

الفصل الثالث
أسطورة الخلق البابلية
الإنيوما إيليش

كتبت أسطورة الخلق البابلية على سبعة ألواح، وقد وجدت في خرائب مكتبة أشور بانيبال فى قوبو نجك «نينوى» فى عام 1854، وهذه الألواح نسخة من قصة انحدرت إلي بابل وأشور من بلاد سومر[1].

وتعنى «إنيوما إيليش» Enouma Elish «عندما فى الأعالى»، فقد كانت عادة السومريين والبابليين أن يسموا الملحمة بالعبارة الافتتاحية فى النص، والذى بدأ بعبارة «عندما فى الأعالى لم تكن السماء..»، ففى أول الأمر كان العماء، فلم يكن هناك سماء ولا أرض، لم يكن فى الوجود إلا العماء المائى، حيث كان «أبسو» المياه العذبة يختلط بمياه «تعامة» أو «تيامات» المالحة، أخذت الآلهة بعد ذلك فى الظهور، إلى أن وُلد «آنو» الذى أصبح فيما بعد إله السماء، والذى أنجب بدوره «إنكى» أو «إيا» إله الحكمة والفطنة، والذى أصبح فيما بعد إله المياه العذبة، وكان له من القوة ما مكنه من السيادة على باقى الآلهة حتى على آبائه.

---

(1) قصة الحضارة - جـ 2 - ص 217.

لكن هـذه الآلهـة التى ظهـرت عكرت صـفـو وسـكون «أبسـو» الذى قـرر إبادة هذا النسل الجـديد ليـعـود إلى السكون مـرة أخـرى، وبالفـعل يضع خطة لهذه الإبادة ويبدأ فى تنفيذها - رغم معارضة تعامة - وهنا لم يكن من منقـذ لشبـاب الآلهـة إلا الإله «إيا» الذى يسـتطيع أن يوقف مـخطط الإبادة ويقضى على «أبسو».

بعـد القـضاء على «أبسـو» كان على «تعـامة» أن تتوخى الحـذر، فشبـاب الآلهـة أصبح لديهـم من القوة والسطوة مـا يمكنهم من التـحكم والسيطرة، ولعل يجئ الدور عليـها فتلقى نفس مصـير «أبسـو»، لذا قـررت «تعـامة» أن تسلك نفس مـسلك «أبسـو» - بعـد اجـتمـاعـهـا مع الآلهـة القـديمة - وتتخـذ قـراراً بإبادة الآلهـة الجـديدة، وعندمـا يعلم هؤلاء بهـذا القـرار ينتـابهم الخـوف والهلـع، ولكنهم فى النهـاية يعتـمـدون على إله قـوى، فـاق أبيـه فى القـوة والبطـش، وهـو الإله «مـردوخ» أو «مـردوك» ابن الإله «إيا»، وبـالفـعل يستطيع مـردوخ - كمـا اسـتطاع والده من قـبل - أن يقـضـى على «تعـامـة»، ليس هـذا فـقـط، بل عمل على إخـراج الكون من حـالة السكون والـركود إلى حـالة الحـركة، وذلك بأن قـام بشق جـثة تعـامـة إلى شـقين، وجـعل منـهـمـا السـمـاء والأرض، ثم قـام ببـاقى عـمليـة الخلق إلى أن خلق الإنسـان، وفي النهـايـة نظم الآلهـة إلي فـريقين، جـعل الفـريق الأول فى السـمـاء وهم «الأنونـاكى» والثـانى جـعله فى الأرض وهم «الأيجـيـجى» أو (الأيكيكى). وبعد ذلك يتوج الآلهة «مردوخ» سيداً للكون، ليكون بذلك أعظم آلهة بابل.

وبعد هذا العرض المختصر لأسطورة أو ملحمة الخلق البابلية «إنيوما إيليش» نقوم الأن بعرض نص الملحمة كما جاءت بها الألواح السبعة[1]:

---

(1) سنعتمد أساساً على النص الوارد بكتاب «سلسلة الأساطير السورية - ديانات الشرق الأوسط» تأليف: رينيه لا بات وآخرون - ترجمة: مفيد عرنوق، وكذلك النص الوارد فى كتاب فراس السواح: «مغامرة العقل الأولى».

وانظر كذلك:

1 - James Pritchard. Ancient Near - Estern Texts, Princeton University. Press 1969.

2 - Alexander Heidel, The Babylonian Genesis, phoenix Books, Chicago, 1970.

اللوح الأول

عندما فى الأعالى لم تكن السماء قد وُجدت.

ولم يكن هناك أرض ظهرت.

لم يكن هناك (من الآلهة) سوى «ابسو»[1] ابوهم.

وتعامة[2] التى ولدتهم كلهم.

امتزجت مياههم جميعاً.

حيث لم تظهر المراعى والمقاصب.

ولم تكن الآلهة قد ظهرت بعد.

ولا اتخذت اسماً ولا رُسمت اقدارهم.

عندئذ خلقت (تعامة وأبسو) فى أعماقهم.

لحمو ولحامو[3] الذين ظهروا فإنهم الأولون الذين اتخذو اسماً.

وبعد أن كبروا وتم تكوينهم.

(1) ابسو: المياه العذبة.

(2) تعامة: مياه البحر المالحة.

(3) الهة غير واضحة الشخصية.

خلقوا «إنشار» و«كينشار»[1] وهم أعظم شأناً من أولئك.

كانت أيامهم طويلة وأعوامهم مضاعفة.

ثم أنجبا «آنو»[2] وريثهما.

كان «آنو» بكر «إنشار» وشبيها له.

ثم أنجب «آنو» «نوديمو»[3] على شاكلته.

أصبح «نوديمو» سيد آبائه.

كان إدراكه واسعاً وقوته هائلة وأمسى حكيماً.

أعظم من جده «إنشار».

لم يكن له ند بين الآلهة رفاقه.

عندئذ تحالف الآلهة مع هؤلاء الرفاق.

وعكر صخبهم صفو «تعامة».

لقد شوشو على تعامة سكونها.

أفزعوا بصخبهم المساكن في الأعالي.

لم يقدر «أبسو» على إسكات صخبهم.

وعلى الرغم من صمت تعامة.

إلا أنها احسَّت بأن صخبهم لا يحتمل.

وكانت رافضة لسلوكهم.

1) معناها المجموعة العليا والمجموعة الدنيا.
2) تبدأ بالإله «آنو» ولادة الأجيال الجديدة (شباب الآلهة) التى عبدها البشر فيما بعد.
3) نوديمو: هو الإله «إيا» أو «إنكى» إله الحكمة وإله الماء العذب.

عندئذ تقدم «ابسو» سلف الآلهة الكبار.

ونادى على رسوله «مومو»[1] قائلاً له:

تعال نذهب إلي تعامة.

فذهبا وجلسا حيال «تعامة».

تشاوروا بشأن (شباب) الآلهة.

وفتح «ابسو» فاه قائلاً لتعامة:

«إن سلوكهم ليثقل على،

ففى النهار أفقد الراحة وفى الليل يغادرنى النعاس.

لأدمرنهم، واضع حداً لأفعالهم.

حتى يسود السكون ونتمكن من النوم».

عندما سمعت تعامة هذا الكلام.

تمكن منها الغضب فصاحت بوجه زوجها.

صرخت وثار هياجها.

كتمت الشر فى قلبها وقالت:

«لماذا نحن نفنى ما خلقناه.

فمهما كان سلوكهم سيئاً علينا أن نبقى عطوفين».

تكلم «مومو» مبدياً رايه لـ «ابسو»،

وبلسان مستشار فاقد العطف، كان رأى رسوله «مومو»:

---

(1) هذه الشخصية الجديدة تمثل رسول «ابسو» وهى لم تلعب أى دور رغم أنه يدعو «ابسو» أباه.

«ابطل يا أبتِ هذا السلوك المضنى.

لتكن لك فى النهار راحة وفى الليل نعاس».

فرح «ابسو» عند سماعه ذلك واضاء وجهه.

للأذى الذى كان يضمره ضد الآلهة ابنائه.

فعانق بذراعه «مومو».

الذى تقدم وركع ليقبله.

وكل ما دار فى هذا المجلس.

أعلموا به الآلهة أولادهم الكبار.

وحين علم الآلهة بهذا القرار اضطربوا من شدة اليأس.

فسكنوا ولاذوا بالصمت.

غير أن أذكاهم صاحب الحكمة والقادر.

«إيا» العارف بكل شئ، تراءت له خطة لإنقاذهم.

فقد وضع خطة كاملة ضد «ابسو».

وبكل مهارة حول ضده رقية سحرية.

ثم أنشدها له وسرعان ما هدأ فى جوف الماء.

إذ اجتاحه النعاس وغط فى نوم عميق.

لقد أنام «إيا» «ابسو».

وبينما كان مستشاره «مومو» فى حالة أرق.

نزع «إيا» عنه ثيابه وصولجانه.

وبهاءه الإلهى، ولبسها هو.

وبعدها كبل «أبسو» بالسلاسل وذبحه.

كما حبس «مومو» وراء القضبان.

ومن ثمَّ شيد مسكنه فوق «أبسو».

كما انه امسك «مومو» وربطه بالحبل.

وبعد أن قيد وأخضع كل من كان يريد به سوءاً

أعلن فى وجه أعدائه انتصاره.

وبعد أن استراح (إيا) فى غرفته بكل هدوء.

وبعد أن خصه «أبسو» بالمعابد.

فى هذا المكان وأقام له فيه قدس الأقداس.

سكن «إيا» وزوجته «دمكينا» بكل جلال.

وفى هذا المذبح الخاص بالأقدار والمقدس المثالى.

وُلد السيد الحكيم بين الحكماء واحكم الألهة.

فمن السيد الحكيم بين الحكماء واحكم الآلهة.

فمن قلب الـ «أبسو» الصافى ولد «مردوخ».

إن «إيا» أباه هو الذى خلقه.

و«دمكينا» أمه هى التى وضعته.

لقد رضع ثدى الآلهة.

واسبغت عليه الجلالة والهيبة.

وكانت قامته رائعة ووضاء كان نظره.

وكان من البداية ذا عزم.

عندما رآه «إيا» أبوه.

فرح وابتهج وامتلأ قلبه غبطة.

ولكى يدعه كاملاً جعله يحظى بألوهية مختلفة.

إنه أكثرهم تمجيداً وأرفعهم منزلة.

وكانت مقاساته الباهرة لا حدود لها.

ليس فى مكنة الفكر الإحاطة بها.

ومن الصعب تخيلها.

له عيون أربع وآذان أربع.

وحين يحرك شفتيه تتوهج النيران.

تضاعف سمعه أربع مرات.

وكانت عيونه تحيط بكل شئ.

إنه مجيد عملاق بين الآلهة.

بنيته هائلة منذ ولادته.

«ماريتو»، «ماريوتو»[1].

ابن الشمس، شمس الآلهة.

ثيابه تفوق ببهائها ثياب عشرة آلهة.

(1) يبدو أن هذه الكلمة تعنى الإعظام والتبجيل. والبعض ترجمها «عظموه. بجلوه».

كان شديد الرهبة.

خلق آنو الرياح الأربعة.

وأسلم أمرها إلى «مردوخ».

فأحدث الزوابع والأمواج.

فشوش بهذا على «تعامة».

فجعلها قلقة مضطربة.

وكانت الآلهة (الكبيرة) يتعبون من تلك الريح العاصفة.

فأضمروا الشر فى قلوبهم.

فتوجهوا إلى أمهم «تعامة» وقالوا لها:

«حين قتلوا «أبسو» حبيبك.

لم تساعديه ولم تمدى له يدك.

فها هو «آنو» قد خلق رياح الرعب الأربع.

فتعكرت أعماقك وفقدنا نحن النوم.

أنسيتى «أبسو» حبيبك.

و«مومو» المكبل بالأغلال؟ لقد غدوتِ وحيدة.

أو لست أمنا؟ إنك تتحركين مضطربة.

أما نحن فأمسينا بلا راحة. أفلا تحبيننا؟

انظرى ما فعله السهر بعيوننا.

فارفعى هذا النير دون مهل حتى ننام.

وانتصرى عليهم، واثأرى لـ «ابسو» و«مومو».

باطلون هم أعداؤنا، فحوليهم إلى أشباح».

عندما سمعت تعامة ذلك سرت به، وقالت:

دعونا نخلق وحوش.

وعندها تجمع الآلهة إلى معسكر تعامة.

بعد أن أضمروا الشر ضد الآلهة (الشابة).

أتوا كلهم ووقفوا بجانب تعامة.

غير مفكرين إلابالشر، ليل نهار، وبلا تمهل.

واعلنوا الحرب وهم يضربون الأرض بأقدامهم فى هياج.

وعقدوا مجلساً استعداداً للحرب.

كما أن والدة «هوبور»[1] خالقة الأشياء كلها.

صنعت أسلحة جمة لا تقاوم، لقد خلقت الأفاعى العملاقة.

ذات الأنياب الحادة والأفكاك التى لا ترحم.

وملأت أجسادها بدل الدم، سماً.

والبست التنانين ثياباً رهيبة.

وحملتها كل بهاء وجعلتها كالآلهة.

فمن يراها يموت ذعراً.

وحين كانوا يثبون لا يتراجعون.

(1) والدة «هوبور» أى تعامة، وهوبور هو نهر الجحيم.

لقد أثارت التنين ذا السبعة رؤوس.

والإبليس المتوحش.

والأسود الضخمة والكلاب المسعورة والرجل العقرب.

وأبالسة الزوابع والذبابة العملاقة والرجل السمكة.

حملة السلاح لا ترحم ومن دون وجل وفى ساحة القتال.

كانت قدراتها عظيمة لا ترحم.

وعوضاً عن «أبسو» خلقت أحد عشر غولاً.

وكان بين الآلهة أولادها البكر (الجيل الأول) وعصبتها.

واختارت «كينجو» ليكون زعيماً عليهم.

فى إدارة الجيش وتوجيه العصبة.

ليشهر السلاح فى ساحة المعركة ويأمر بالهجوم.

ويوزع الغنائم فى ساحة القتال.

لقد وضعت كل شئ تحت تصرفه وأجلسته على العرش هاتفةً به:

لقد أطلقت من أجلك الرقى وجعلتك الأعظم فى مجمع الآلهة.

ومنحتك السلطة على جميع الآلهة.

فكن إذن الأعظم وكن زوجى الوحيد.

وليمجدوا اسمك أكثر من جميع «الأنوناكى».

ثم سلمت له ألواح القدر، وزينت بها صدره قائلة:

«لتكن أوامرك لا مرد لها، وليكن ما تقوله ثابتاً».

أما الآن وقد أصبح «كينجو» ممجداً بعد أن استلم الألوهة العظمى.

فإلى الآلهة أولاده حدد القدر.

فلتسكن النار الكلمات الخارجة من فمك.

وليكون لسُمّك المتجمع القوة العظمى.



اللوح الثانى

بعد أن أضحت «تعامة» مستعدة لتنفيذ ما عزمت عليه.

نظمت القتال ضد ذريتها من الآلهة.

أتمت كل شئ لتنتقم لـ «أبسو».

ولكن الأخبار وصلت إلى «إيا».

وحين تيقن من المسألة.

وبعد تفكير طويل، وبعد أن هدأ غضبه.

توجه بعدها إلى «إنشار» والده.

وحين دخل على والده الذى أنجبه.

أخبره بمؤامرة تعامة قائلاً:

«يا أبتِ، إن « تعامة» التى أنجبتنا تكرهنا.

وقد عقدت اجتماعاً وهى فى ثورة غضبها.

فاستقطبت الآلهة كلهم.

حتى إن الذين خلقتهم أنت اصطفوا إلى جانبها.

لقد انطلقوا إلى جانب «تعامة»، جماعة واحدة.

ولا يفكرون إلا بالشر ليلاً نهاراً.

حضًروا للقتال وهم فى ثورة الغضب.

عقدوا اجتماعاً واستعدوا للحرب.

لقد صنعت أم «هوبور» التى خلقت كل شكل:

أسلحة لا تقاوم، وأفاعى لا تقاوم.

ذات أنياب حادة وأفكاك لا ترحم.

فملأت أجسامها بالسم بدل الدماء.

أتت بتنانين ضارية، تبعث الرعب.

وأظهرتهم فى كل بهاء كأنهم آلهة.

يموت ذعراً من يراهم.

وحين يثبون لا يتراجعون.

لقد أثارت التنين والغول المتوحش.

والأسود الضخمة والكلاب المسعورة والرجل العقرب.

وشياطين الزوابع والإنسان السمكة والبقر الوحشى.

إنهم حملة سلاح لا ترحم ولا تعرف الخوف فى القتال.

إن إرادتها لا تقاوم.

وبجانب ذلك خلقت أحد عشر غولاً لتحل محل «أبسو».

ومن بين الآلهة أبكارها الأوائل الذين يؤلفون فرقتها.

أختارت «كينجو» الذى جعلته أعظمهم.

وجعلته هو قائد هذا الجيش.

ليشهر السلاح ويعلن الهجوم.

وهو الذى سيوزع الغنائم.

لقد وضعت كل شئ في يديه وأجلسته على العرش قائلة:

لقد أطلقت من أجلك الرقية وجعلتك رئيساً لمجمع الآلهة.

وملأت يدك بالسيادة على الآلهة كلهم.

فكن إذن، الأعظم وكن زوجى الوحيد.

وليشيدوا باسمك أكثر من كل «الأنوناكى».

ثم أعطته لوحة الأقدار وأناطتها بصدره قائلة:

لتكن الأوامر التى تصدرها لا تُرد وليكن ما تقوله ثابتاً.

وبعد أن جرى تنصيب «كينجو» وتسليمه السلطة العليا.

قاما بتقرير مصير الآلهة.

سيكون لكلمتك قوة الإخضاع.

وستذل «كلمتك» الأسلحة القاهرة.

فلما سمع «إنشار» ذلك وعرف بثورة «تعامة».

ضرب فخذه وعض على شفتيه.

كان حزنه عظيماً واضطرابه بالغاً.

كتم حزنه وضطرابه.

وقال لـ «إيا»:

إنك أنت الذى ستكون خصمها فى القتال.

فتحمل انت تصرفاتها.

وها انت قيدت «مومو» بالسلاسل وقتلت «ابسو».

فمن سواك سيتصدى لـ «تعامة» فى هيجانها.

وراح «إيا» يتحدث قائلاً:

ها أنت ذا القلب الذى لا يُسبر غوره، أنت الذى تحدد الأقدار.

أنت الموكل بالخلق والهدم.

انت يا «إنشار» يا ذا القلب الذى لايسبر، يا من يحدد الأقدار.

ويتنفيذ ما تقول... ما نرغب فيه نحن.

يوجد جزء من النص مشوه، ولكن السياق العام للنص يدل على أن «إيا» قد فشل فى محاولته التصدى لتعامة، أو أنه قد رفض التصدى لتعامة من الأساس، ومن ثم راح «إنشار» يبحث بين الآلهة عمن يمكنه الوقوف أمام «تعامة»، فوقع إختياره على «آنو».

قال(إنشار) لابنه «آنو»:

يا أول أبنائى أيها البطل الرائع.

يا ذا القدرة الفائقة، والانقضاض الجرئ.

امض أنت وواجه «تعامة».

وإذا لم تُصغ لكلماتك.

توسل إليها باسمنا كيما تهدأ.

وعندما سمع «آنو» كلام ابيه «إنشار».

اتجه صوب «تعامة».

اتجه إليها بعد ان ادرك مخططها.

ادرك عجزه عن مجابهتها فعاد من حيث اتى.

مضى فى رعب إلى ابيه «إنشار».

وقال له:

«يا ابتِ لم اعد قادراً. لقد كانت اقوى منى.

.... ووضعت يدها على».

لاذ «إنشار» بالصمت وطرق براسه إلى الأرض.

لقد توجع وراح يهز راسه وهو يتطلع إلى «إيا».

تجمع «الأيجيجى» كلهم و«الأنوناكى».

وقد أطبقوا على شفاهم ثم جلسوا وهم يلوذون بالصمت.

فما من إله يمضى لقتالها.

ويأمن العودة سالماً من قتالها.

ثم نهض «إنشار» ابو الآلهة بعظمة وجلال.

يفضى بما تجيش به نفسه للأنوناكى:

«إن من سينتقم لنا هو صاحب العزم المتين.

الجرئ فى ساحة الوغى، إنه «مردوخ» الشجاع».

عندها طلب «إيا» مردوخ سراً.

واسر إليه بما يجيش به قلبه:

«يا مردوخ اسمع النصيحة:

انت يا بنى، يا من يريح قلب ابيه.

تقدم من «إنشار» فى وضع القتال.

تكلم وانتصب فإذا رآك سيهدأ».

سر مردوخ لكلمات أبيه.

وعندما تقدم وانتصب أمام «إنشار».

وإذ رآه «إنشار» أفعم قلبه اطمئناناً.

فقبل شفتيه وطرد مخاوفه قائلاً:

«يا أبتِ لا تكن صامتاً افتح فمك.

فسوف أحقق لك كل ما تتمناه.

كف يا «إنشار» عن الصمت وافتح فمك.

فسوف أحقق لك كل ما تتمناه.

كف يا «إنشار» عن الصمت وافتح فمك.

أي الرجال قد أشهر سلاحه ضدك.

أم تراها «تعامة»، وهى أنثى، قد فعلت ذلك؟

يا أبت أيها الإله الخالق اطمئن وكن فرحاً.

فقريباً ستطأ انت رقبة «تعامة».

إنشار يا خالقى اطمئن وكن فرحاً».

(فقال إنشار): «هيا امضِ يابنى فأنت الملم بكل علم.

أسكت «تعامة» برقيتك المقدسة.

وتقدم بعرية من الزوابع.

فإن أنت وجدتها صامدة تراجع».

بدا السيد «مردوخ» سعيداً لهذه الكلمات.

وقد فرح قلبه، فقال لأبيه:

«إذا كان ينبغى لى أنا ان انقذكم.

وإن كان علىّ أنا، ان اقيد «تعامة» بالسلاسل وأحفظ حياتكم.

فاعقد مجلساً وأعلن فيه قدرى.

وحين ينعقد المجلس، اجلسوا جميعاً فرحين.

وليكن بأمرى أنا بدلاً منك تحديد الأقدار.

وأن كل ما أخلقه سيصبح لا تغيير فيه ولا تحويل.

ولا مرفوضاً وكل امر انطق به لا يتبدل.



اللوح الثالث

تكلم «إنشار».

موجهاً كلامه إلى «كاكا» رسوله:

«كاكا يا رسولى يا من يريح قلبى.

سأرسلك إلى «لحمو» و«لحامو».

لأنك ماهر فى التمييز فصيح الحديث.

ادع آبائى الآلهة للحضور إلى.

وليأت معهم جميع الآلهة.

فيجلس الجميع إلى مأدبتى ونتحدث.

سنأكل خبزاً ونشرب خمراً.

وإلى «مردوخ» المنتقم فليسلموا مقاديرهم.

وردد على مسامعهم ما أقوله لك:

إن إنشار ابنكم هو الذى أرسلنى.

وكلفنى بأن أعرض عليكم رسالته السرية:

فتعامة التى أنجبتنا تكرهنا.

وفى شدة غضبها الفت عصبة.

لقد انحاز إليها كل الآلهة.

حتى من خلقتموهم أنتم، انضموا إليها.

وهم فى غضبهم لا يفكرون إلا بالشر ليل نهار.

تحضروا للقتال فى سخط وهياج.

وعقدوا اجتماعاً استعداداً للحرب.

لقد صنعت أم «هوبور» خالقة الأشياء جميعاً.

أسلحة لا تقاوم وافاع عملاقة.

ذات أنياب حادة وأفكاك لا ترحم.

ملأت أجسادها بالسم بدلاً من الدم.

والبست بما يُرهب الأغوال الهائجة.

وحمّلتها بالبهاء وكأنها آلهة.

وجعلت من يراها يغشى عليه من الخوف.

وعندما ينقضون لا يتراجعون.

لقد خلقت الثعبان ذا السبعة رؤوس والغول المتوحشة.

والأسود الضخمة الكلاب المسعورة والرجل العقرب.

وشياطين الزوابع الشرسة والرجل السمكة والبقر الوحشى.

وهم حملة سلاح لا يرحم ولا يرهبون القتال.

لأن إرادتها عظيمة لا تقاوم.

كما خلقت إحدى عشرة غولاً لتحل محل «ابسو».

ومن بين الآلهة الذى يؤلفون عصبتها.

اختارت «كينجو» وجعلته أعظمهم،

وأوكلت إليه إدارة المعركة.

وحمل السلاح استعداداً للهجوم.

وليكون موزع الغنائم في أرض القتال.

وضعت كل شئ فى يده وأجلسته على العرش قائلة:

لقد أطلقت من أجلك الرقية وجعلتك سيد مجمع الآلهة.

ووهبت لك السلطة على جميع الآلهة.

فكن إذن الأعظم بينهم وكن زوجى الوحيد.

وليمجدوا اسمك أكثر من جميع «الأنوناكى».

ولم تلبث أن اسلمته «لوحة الأقدار» وعلقتها على صدره قائلة:

لتكن أوامرك حازمة، وقولك ثابتاً.

وبعد أن تمجد «كينجو» ونال الألوهية العظمى.

حدد قدر الآلهة.

سيكون لكلمته قوة الإخضاع.

وسيتجمع سُمه فيلغ القوة العليا.

لقد أرسلت «آنو» ضدها غير أنه لم يتمكن من مواجهتها.

وكذلك خاف «نوديمو» وتقهقر.

أما «مردوخ» فإنه يبتغى المضى إليها، إنه ابنكم، احكم الآلهة.

لقد قرر فجاة مواجهة تعامة.

وقد قال لى:

إذا كان على ان اخذ بثأركم.

وإذا كان على ان اقيد «تعامة» وانقذ حياتكم.

اعقد اجتماعاً واعلنوا سلفاً قدرى.

حين ينعقد الاجتماع اجلسوا جميعاً فرحين.

وليكن بأمرى بدلاً من امركم ان اتولى تحديد القدر.

ولا شئ مما سأخلقه يمكن تغييره.

والا يرفض او يحوِّر اى امر يخرج من بين شفتى.

فتعالوا إلى هنا مسرعين وحددوا له دون تأخير قدركم.

كيما يمضى ويواجه عدوكم الرهيب.

وقد امتثل «كاكا» لذلك وسلك فوراً طريقه.

وامام جديه «لحمو» و«لحامو» مثل وقال لهم:

إن «إنشار» ابنكم هو الذى أرسلنى.

انا الذى كلفه بأن يعرض عليكم رسالته المقدسة.

يتكرر بعد ذلك المقطع السابق الذى يصف اجتماعات تعامة واستعدادها للحرب والمخلوقات الغريبة المتوحشة التى خلقتها.

فلما سمع «لحمو» و«لحامو» ذلك، صرخا بصوت عال.

ومعهم كل الأيجيحى بكوا بحرقة:

ماذا جد من أمور حتى تأخذ «تعامة» بحقنا هذا القرار؟

نحن لم نكن ندرى ماذا فعلت.

فهرعوا صوب «إنشار».

كل الآلهة التى تحدد الأقدار.

مثلوا حيال «إنشار» وقد أفعموا فرحاً.

تعانقوا وجلسوا في المجمع وتكلموا وجلسوا حول المائدة.

أكلوا الخبز، وشربوا الخمر.

فزال الهم عن قلوبهم.

وعندئذٍ حدّدوا الأقدار لمردوخ.



اللوح الرابع

أقاموا لمردوخ منصة عرش ربانية.

وحيال آبائه أخذ مكانه ليلتقى السلطة الربانية:

«انت الأهم بين الآلهة الكبار.

ليس لقدرتك مثيل وأمرك كأمر «آنو».

يا مردوخ، ها أنت ذا الأعظم من بين الالهة.

لايقارن قدرك وأمرك كأمر «آنو».

ليكن أمرك ثابتاً منذ اليوم.

فالارتقاء والانخفاض طوع يدك.

وليكن كلامك ثابتاً وأمرك لا يقاوم.

ومن بين الآلهة ليس ثمة أحد يتجاوز حدودك.

والآن فقد بدت صيانة مذابح الآلهة ضرورية.

فليكن لك مكان مخصص حيث يوجد لهم هيكل.

فيا مردوخ أنت الذى ستصبح مخلصاً.

وإننا نمنحك الملكية على كل العالم.

فخذ مكانك فى المجمع ولتكن أقوالك هى السائدة.

بحيث لاينجو أحد من أسلحتك التى تُفنى أعداءك.

فيا سيدنا أنقذ حياة من يثق بك.

أما الإله الذى يفكر بالشر فشتت حياته.

ومن الحين الذى تظهر فيه بروجهم.

أنت يا «مردوخ» بكرهم سيقولون لك:

ليكن قدرك يا سيد بين الآلهة.

كلمتك تدمر وتخلق لامرد لها.

ستستجيب البروج لأمرك فتهدم.

وتعود سليمة مرة أخرى بكلمتك.

أمر مردوخ، بدمار البروج.

وعند سماع صوته دُمرت البروج.

ولما أعطى الأمر المعاكس عادت البروج سليمة من جديد[1].

ولما وقف الآلهة على مفعول كلمته.

ابتهجوا وحيوه بهذه الكلمات: «نعم إن مردوخ ملك».

وأسلموه عصا الملك والتاج والشعار الملكى.

---

(1) فى ترجمة أخرى، قام الآلهة بوضع ثوب فى وسطهم وقالوا لمردوخ: أن الثوب سيفنى بكلمته ويعود مرة أخرى بكلمته، فأمر بفناء الثوب، ففنى، ثم أمر به فعاد مرة ثانية. انظر - مغامرة العقل الأولى لفراس السواح - ص 71.

كما أسلموه سلاحاً لا مثيل له يقضى على الأعداء.

وقالوا له: امضِ وضع حداً لحياة «تعامة».

ولتأخذ الرياح دمها إلى أماكن مجهولة.

وبعد أن حدد الالهة آباؤه قدره.

دبروا له طريق الكمال والطاعة.

فصنع قوساً بنفسه واعتبره سلاحه.

ركّز عليه السهم وتأكد من الوتر.

وعندئذٍ رفع بيده اليمنى المطرقة الإلهية.

وعلّق إلى جانبه القوس والجعبة.

ووضع أمامه البرق.

وقد ملأه بلهيب حار.

كما صنع شبكة يوقع بها «تعامة».

وصرف الريح تمسك بأطرافها لتحتوى «تعامة».

ريح الجنوب، وريح الشمال، وريح الشرق،وريح الغرب.

وإلى جانبه جمع الشبكة هبة أبيه «آنو».

وخلق الريح المؤذية والإعصار والزوبعة.

والريح الرباعية، والريح السباعية، والريح المدمرة التى ليس لهامثيل.

محرراً هذه الرياح التى خلقتها (تعامة).

فانطلقت خلفه ابتغاء تشويش صدر «تعامة».

وأقام السيد الطوفان سلاحه القوى.

وصعد إلى المركبة ليخيف شياطين الزوابع التى لا تقاوم.

وشد لجر المركبة طاقم من أربعة لا تقهر:

(هم) القاتل والحاقد والرافس برجله والعدَّاء «فيلوس»[1].

وشفاهم مفتوحة وأسنانهم تحمل السم.

إنهم لا يعرفون التعب وهم مستعدون لسحق العدو.

وإلى يمينه خطّط ليكون قتال رهيب ومعركة[2].

وإلى يساره هجوم يصرع كل المتحالفين.

أما هو فقد لبس الدرع الذى يوحى بالذعر.

ووضع على رأسه البهاء الذى يتلألأ رعباً.

وأخذ طريقه لا يثنيه شئ.

متجهاً صوب تعامة الهائجة.

وكانت بين شفتيه الصيغة السحرية.

وهو يعصر بيده النبتة التى تبطل مفعول السم.

وكان الآلهة يحفونه.

---

(1) فى ترجمة أخرى: المدمر، والعتى، والساحق، والطيار.
انظر المصدر السابق ص 72.

(2) فى ترجمة أخرى جاء هذا البيت والذى يليه كالتالى:
وضع عن يمينه الباطش المجلى فى النزال
وعن يساره الفاتك الذى يؤجج الحماس.
قارن المصدر السابق - ص 72.

كما كان حوله الآلهة آباؤه راكضين.

وحين اقترب اتجه صوب جوف «تعامة».

متطلعاً إلى المخطط الذى وضعه من أجل زوجها «كينجو».

بيد أنه ما أن دنا منها حتى اضطربت مشيته.

وضعف فكره وأضحت حركاته غير متزنة.

وإذا أبصره الآلهة وهم حلفاؤه وأعوانه.

أبصروا بطلهم ورئيسهم فاضطربت على هذا النحو رؤيتهم.

وعندئذ أطلقت «تعامة» الصيغة السحرية دون أن تثير رقبتها.

ومن شفتيها كمخلوق بدائي أطلقت الأراجيف:

«من أنت حتى تكسب جمع الآلهة[1].

فهبطوا إلى منزلتك وساروا معك».

فرفع «مردوخ» سلاحه الرهيب فيضان المطر.

ورد على تعامة قائلاً:

«لماذا تتظاهرين بالعواطف الطيبة.

بينما قلبك لا يفكر إلا بالهجوم.

ومن أجل ذلك أثرتى الشحناء بين الأباء والأبناء.

أنت نفسك أمهم تكرهين الشفقة.

---

(1) هذا السطر والذى يليه غير موجدين بكتاب «سلسلة الأساطير السورية» لرينيه لابات وآخرون.

لقد اضفيت على «كينجو» لقب الشرف كيما يكون زوجك.

ومنحته دون حق سلطة الإله الأعظم.

ولم تضمرى إلا الشر لإنشار ملك الألهة.

وحيال الألهة ابائي برهنتِ على خبثك.

فلتستعد جيوشك ولتحيطك بأسلحتها.

هيا تقدمى ولنتصارع نحن الاثنان».

ما أن تناهى إلى سمع «تعامة» هذه الكلمات.

حتى أمست كالمجنونة فاقدة عقلها.

فأطلقت «تعامة» صراخاً قوياً مرعباً.

حتى اضطرب جسدها كله.

لقد تلت رقيتها ثم أرسلت صيغتها السحرية.

وشحذ الألهة بدورهم أسلحتها.

هكذا تصدى لـ «تعامة» احكم الألهة «مردوخ»:

التحما فى صراع وقتال.

استخدم «مردوخ» شبكته واحتواها فى داخلها.

ثم أطلق عليها الريح الرديئة التى امسكت بمؤخرتها.

وحين فتحت «تعامة» فمها لبتلاعه.

دفع فى فمها الريح الشيطانية حتى لا تقوى على إطباق شفتيها.

فملأت الرياح بعنف جسمها.

فانتفخ بطنها وفتحت فمها على سعته.

وعندئذٍ رشقها بسهم مزق به معدتها.

وشطر جوفها شطرين.

فلما تهاوت أمامه أجهز على حياتها.

ثم طرح جثتها أرضاً ووقف عليها.

وبعد أن قضى على تعامة.

تفرقت فرقة حرسها وتشتت جيشها .

واعترت الآلهة حلفاءها ومساعديها.

الرجفة فرقاً وأداروا ظهورهم.

مولين الأدبار خوفاً على حياتهم.

ولكن لاسبيل للنجاة، فهم محاطون من كل جانب.

حبسهم «مردوخ» وحطم أسلحتهم.

وقعوا فى شبكته واستقروا بالشرك.

حوصروا فى الزوايا التى امتلأت عويلا.

فصب عليهم جام غضبه وهم محبوسون.

أما الأحد عشر مخلوقاً الذين يرتدون لباس الرعب.

وهم معشر الشياطين الذين سائرين إلى يمينها.

فقد أوثقهم بالحبال وقيد أذرعهم.

ومع حدتهم على القتال وطأهم بقدميه.

اما «كينجو» الذى كان اعظمهم.

فقد قيده بالأغلال واعتبره بالنسبة إليه فى عداد الآلهة الأموات[1].

وانتزع من صدره لوحة الأقدار التى كان يحملها دون حق.

وختمها بخاتمه ثم علقها فى صدره.

وبعد ان قيد وأخضع كل الذين كانوا يبتغون دماره.

وسحق كالثور عدوه المتكبر.

بسط سلطان «إنشار» على أعدائه وعزز نصره.

وحقق آمال «نوديمود». إنه «مردوخ» الشجاع.

وشدد على الآلهة المقيدين قبضته.

وعاد من جديد إلى «تعامة» التى قيدها.

ورفس «مردوخ» برجليه قاعدة «تعامة».

وبمطرقته التى لا ترحم شقَّ جمجمتها.

وبدمها بعد ان قطع عروقها.

نقلتها ريح الشمال إلى أمكنة مجهولة.

وإذ رأى آباؤه ذلك، ابتهجوا وهللوا.

وقدموا له الهدايا والعطايا.

---

(1) لفظة الأموات هنا لا تعنى الموت حقيقة، ولكن العيش بين الأموات، وفى ترجمة أخرى جاء هذا السطر كالتالى:

فقد كبله وأسلمه إلى إله الموت سجيناً.

وكلفهم بمنع مياهها من التدفق.

ثم اتكأ «مردوخ» يتفحص جثتها المسجاة[1].

ليصنع من جسدها أشياء رائعة:

شقها نصفين فانفتحت كما الصدفة.

رفع نصفها الأول وشكل منه السماء سقفاً.

وضع تحته العوارض وأقام الحرس.

أمرهم بحراسة مائه فلا يتسرب.

لقد جاب السماوات وفتش مواقعها.

سكن «نوديمود» ليحل محل «أبسو».

وقاس «مردوخ» أبعاد الأبسو.

وأسس معبداً عظيماً على صورته وهو الـ «إيشارًا»[2].

لقد كانت السماوات معبد «إيشارًا» العظيم الذى أبدعه.

خصص فيها لـ «آنو» و«إنليل» و«إيا» أماكنهم المقدسة[3].



---

(1) هذا السطر والأسطر الخمسة التى تليه غير موجودين بكتاب «سلسلة الأساطير السورية».

(1) إيشارًا كانت تعنى مسكن الكل ثم أطلقت على معبد آشور وأحياناً على معبد آنو فى أوروك.

(2) مسكن آنو هو السماء، وإنليل سطح الأرض، باعتباره إله الهواء. وإيا الماء العذب، فى باطن الأرض.

اللوح الخامس

لقد خلق «مردوخ» المحطات[1] للآلهة الكبار.

أوجد لكل، مثيله من النجوم.

حدد السنة وقسم المناخات.

ولكل من الأثنى عشر شهراً أوجد ثلاثة ابراج.

وبعد أن حدد بالأبراج أيام السنة.

خلق كوكب المشترى ليضع الحدود[2].

وعلى جانبيه خلق محطتى إنليل وإيا[3].

فتح بوابتين فى كلا الجانبين[4].

دعمهما بأقفال قوية على اليمين وعلى الشمال.

ووضع فى كبد «تعامة» المرتفعات السماوية.

---

(1) المحطات هنا تعنى النجوم.

(2) اعتقد البابليون أن كوكب المشترى يقع فى الوسط بين النطاق السماوى الشمالى العائد لإنليل والجنوبى العائد لإيا.

(3) القسم الشمالى والقسم الجنوبى من حزام المجرة.

(4) فتحة فى الشرق وفتحة فى الغرب وهما اللتان تمر منهما الشمس فى الشروق والغروب.

وجعل «ننّار»[1] يشع، جوهرة الليل من اجل تحديد الأيام:

«أن اطلع كل شهر دون انقطاع مزيناً بتاج.

وفى أول الشهر عندما تشرق على كل البقاع.

ستظهر بقرنين يعينان ستة أيام.

وفي اليوم السابع يكتمل نصف تاجك.

وفي المنتصف من كل شهر ستغدو بدراً فى كبد السماء.

وعندما تدرك الشمس فى قاعدة السماء.

انقص من ضوئك التام وابدأ بإنقاص تاجك كما اكتمل.

وفى فترة اختفائك ستسير فى درب مقارب لدرب الشمس[2].

وفى التاسع والعشرين، ستقف فى مقابل الشمس مرة أخرى.

(يوجد بعد ذلك مقطع مشوه، ولكن يفهم منه أن «مردوخ» بعد أن ثبت القمر «ننّار» فى السماء وعهد إليه بتنظيم الشهر، قام بتثبيت الشمس «شمش» فى مكانها التى تحدد دورتها بسنة كاملة).

بعد أن حدد لـ «شمش»[3] رصيد الأيام.

وعين حراس الليل والنهار.

جمع «مردوخ» لعاب «تعامة».

وصنع منه الثلج والجليد.

(1) ننار: اسم آخر لإله القمر سين.

(2) الدرب الذى تسير عليه الشمس فى باطن الأرض ليلاً لتشرق من جديد.

(3) شمش هو إله الشمس.

وكثف الغيوم فروى منها الأرض.

اما بالنسبة إليه، فقد جدد واختار ليده.

ان تطلق الرياح وتمطر ويقع الصقيع.

ويتبخر الضباب وينتشر رضاب «تعامة».

وهيأ راسها واضعاً فوقه جبلاً.

فتفجرت الينابيع وجرى منها الماء العذب.

واجرى من عينيها نهرا دجلة والفرات.

اما منخراها فقد سدّهما وخصهما بالفيضانات.

وجمع على صدرها الجبال البعيدة.

فاتحاً فيها منافذ كى تجرى مياه الينابيع.

وعكف ذنبها وعقد الرباط أكثر.

ولكى يحتوى كتلة «أبسو» تحت قدميه.

استعمل ردفها لإخضاع السماوات.

جعل من نصف «تعامة» سقفاً وثبّت الأرض.

وأدخل إلى جوف «تعامة» الغبار.

ناشراً حولها شبكته ممعناً فى نشرها.

وإذ شيد السماوات والأرض...

رسخ بينهما الحدود.

وبعد ان احكم شريعته وارسى طقوسه.

أوجد المعابد وأسلمها لـ «إيا».

وجلب لوحة الأقدار التى أخذها من «كينجو».

وأعطاها هدية لـ «آنو».

لقد نشر شبكة القتال التي علقها.

كما قاد أمام آبائه الآلهة السجناء.

أما المخلوقات الأحد عشر التى صنعتهم «تعامة».

فقد حطم أسلحتهم وسجنهم عند قدميه.

جاعلاً منها تماثيل وضعها على باب «أبسو».

كيما تكون فى المستقبل علامة لا تُنسى.

وحين تراءى الآلهة ذلك، فرحت قلوبهم وسُرَّت.

«لحمو» و«لحامو» وجميع آبائهما.

فعانقه «إنشار» وحياه علناً كملك.

كما أن «آنو» و«إنليل» و«إيا» كافئوه بالهدايا.

وصرخت أمه «دمكينا» فى وجهه فرحة.

وجعلت وجهه يشع عرفاناً بالجميل.

وإلى الإله «أوسمو» الذى حمل هداياه إلى مكان سرى.

تكفّل بأن يكون رسول «الأبسو» ومراقب المعابد.

«الأيجيجى» الذين اجتمعوا كلهم عنده سجدوا أمامه.

أما «الأنوناكى» فعلى علو قدرهم، قبلوا قدميه.

كما اجتمع الآلهة كافة ليعبدوه مطرقى الراس قائلين: «هذا هو الملك».

لقد ارتدى الثياب الإلهية.

ومن الهالة الملكية ومن تاج السيادة القهّار.

رفع السلاح الإلهى قابضاً عليه بيمينه.

ممسكاً باليد اليسرى عصا السيادة.

وبعد ذلك يوجد عدد من السطور المشوهة[1]، وهى تصف جلوس مردوخ على العرش بكامل عدته، وعندما يبدأ النص بالوضوح مرة أخرى، نجد أمه وأباه يتوجهان بالحديث إلى الآلهة).

«إيا» و«دمكينا»...

فتحا فمهما متحدثين إلى «الأيجيجى»، الآلهة الكبرى:

«كان مردوخ بالأمس ولدنا المحبوب.

أما اليوم فهو ملك عليكم، فنادوه باسمه.

ثم أعلنوا بصوت واحد:

«سيكون اسمه» لوجال - ديمير انكيا»[2]، فآمنوا به».

حين منحوا «مردوخ» الملكية.

رددوا عليه أمنيتهم بالسعادة واستمعوا إليه:

«كن أنت اليوم من يعنى بمعابدنا.

وكل ما ستقوله نعمله نحن».

(1) هذه الأسطر عددها من 11 إلى 16 سطر.

(2) تعبير سومرى يعنى «ملك آلهة السماء والأرض».

عندئذٍ تكلم «مردوخ»

وقال للآلهة هذه الكلمات:

«المسكن الذى تقيمون فيه فوق «الأبسو».

وبالمقابل «إيشارا»[1] التى بنيتها فوق رؤوسكم.

وفى الأسفل جعلت الأرض صلبة.

إنى راغب فى تشييد مسكن يكون مقراً لسعادتى.

أريد أن أشيد فى الداخل مكاناً للعبادة.

أخصص فيه حجرتى المقدسة أثبت فيها سلطانى.

وإذ تأتون من «الأبسو» فإنكم تصعدون إلى المجلس.

ليكن لكم هناك مستراح من أجل استقبالكم جميعاً.

وإذا تأتون من السماء فإنكم تنحدرون إلى المجلس.

فليكن لكم هناك مستراح من أجل إستقبالكم جميعاً.

وسوف أعطيه اسم «بابل» حى الآلهة العظام.

أما نحن فى الداخل فسوف نعمل.

وعند سماع الآلهة آباؤه هذه الكلمات.

أجابوا «مردوخ» ابنهم: «ليكن هكذا»

ولكل ما صنعت يداك.

من له القدرة أوفر من قدرتك أنت.

---

(1) إيشارا تعنى السماء.

على هذه الأرض التى صنعتها يداك.

من له القدرة اقوى من قدرتك.

وبابل التى اعطيتها أنت الاسم.

وجعلتها مستراحاً ومقراً لنا إلى الأبد.

(ولتخلق لنا)[1] من سيقدم لنا طعام يومنا.

(هناك تلف فى بعض الأبيات الأخيرة من هذا اللوح).

(...........)

هناك... بعملهم (.....).

ابتهج «مردوخ» لما سمع.

اجاب سؤال الآلهة.

اشرق وجه قاتل «تعامة».

وفتح فمه لحديث مقدس:

(...............)

(......) سيوكل إليكم.

فركع الآلهة أمامه وقالوا،

قالوا للإله «لو جال - ديميرانيكا»:

«فيما مضى كان السيد ولداً محبوباً.

---

(1) ما بين القوسين إضافة من عندى حتى يستقيم النص، فمن الواضح أن الكلام هنا عمن سيخلقهم مردوخ من البشر.

أما اليوم فإنه ملكنا، فنادوه اسمه.

لقد أعطتنا تميمته المقدسة الحياة.

إنه رب الصولجان المقدس.

فليقم «إيا» المتمرس بكل حرفة ومهارة.

سيضع المخططات، وسنقوم نحن بالتنفيذ.



اللوح السادس

حين سمع «مردوخ» نداء الآلهة.

عزم على القيام بعمل جميل.

وتحدث عن ذلك إلى «إيا».

معلنا له عما جاش فى نفسه:

«ساضع شبكة من دم وهيكلاً عن عظام.

واقيم مخلوقاً بشرياً وليكن اسمه الإنسان.

سأخلق هذا المخلوق البشرى، هذا الإنسان.

حتى إذا ما كُلِّف بخدمة الآلهة خلدوا إلى الراحة.

كما أريد أن أحسن تنظيم الآلهة.

بتقسيمهم إلى قسمين وهم جميعهم فى جلال».

فتوجه إليه «إيا» بكلمة.

مقدماً رايه فى هذا الموضوع:

«ليسلم واحد من بين الآلهة.

وليهلك وحدَه من أجل نشوء البشرية.

فليجتمع إذن الآلهة الكبار.

وليقدم المذنب حتى يبقى الآخرون خالدين».

جمع «مردوخ» الآلهة الكبار.

وعاملهم معاملة حسنة وأصدر إليهم تعليماته.

أصغى الآلهة بكل احترام إلى أوامره.

فتوجه الملك إلى «الأنوناكى» بهذه الكلمات:

«لقد صدقت معكم ما وعدتكم به[1].

فتكلموا معى بكل مافى الكلمات من صراحة.

من الذى سبَّب المعركة.

وأثار تعامة وسبب القتال.

فليسلم إلى من سبب المعركة.

فلسوف أُحمّله عقوبته فتبقون فى سلام على هذا النحو».

أجاب «الأيجيجى»، الآلهة الكبار.

أجابوا سيدهم «مردوخ»، ملك السماء والأرض:

«إن «كينجو» سبب القتال.

لقد عمل على إثارة «تعامة» وحضَّ على المعركة».

أوثقوه وثبتوه أمام «إيا».

(1) يعنى قتل «تعامة».

ونفذوا فيه العقوبة: وفصدوا دمه[1].

وفى دمه خلق «إيا» الإنسان.

وحكم عليه بخدمة الآلهة وتحريرهم.

وبعد أن خلق «إيا» الحكيم البشرية.

حكم عليه بخدمة الآلهة.

إن عملاً كهذا لم يكن فى وسعنا استيعابه.

والذى نفذه وفقاً لخطط مردوخ المبدعة.

أما «مردوخ»، بصفته ملك الآلهة.

فقد وزع مجموعة «الأنوناكى» فى العالم، من الأعلى إلى الأسفل.

وخص «آنو» بهم، من أجل أن يحترموا أوامره.

واضعاً ثلاثمائة فى السموات بصفة حراس.

وبالطريقة نفسها ثبت نظام الأرض.

وأقام فى السموات والأرض ستمائة إله.

بعد أن نظم «مردوخ» مجمل النواميس.

وأعطى «الأنوناكى» فى السماء والأرض، كل حصته.

توجه «الأنوناكى» بالكلام.

---

(1) إن موت «كينجو» يحمل معنيين: فهو يمنح القسط الإلهى الموجود لدى كل إنسان، كما إنه يكون كبش المحرقة الذى يتحمل بمفرده عقوبة خلق النزاع بين الأخوة الآلهة وبذلك يكون خلق الموت إلى العالم.

انظر - سلسلة الأساطير السورية - ص 67 - هامش 1.

توجهوا إلى «مردوخ» سيدهم قائلين:

«الآن يا سيد وقد وطدت تحريرنا.

بماذا نشير إلى عرفاننا بالجميل نحوك.

حسن فلنعمل ما يمكن ان نسميه مذبحاً.

ولتكن حجرتك المقدسة المكان الذى نأوى إليه فى الليل.

ونأخذ فيه راحتنا.

نعم لنبنِ مذبحاً يكون موطئ قدمنا على الأرض.

وفي اليوم الذى نصل إليه، سنجد فيه راحتنا».

حين سمع «مردوخ» هذه الكلمات.

تلألأت كالنهار تقاطيع وجهه:

«فلتكن بابل كما استهويتموها.

لنشرع بتجهيز الحجارة، ولندع بالهيكل».

عندئذ حرك «الأنوناكى» المعول.

فعجنوا الطوب فى السنة الأولى.

وحين حلت السنة الثانية.

رفعوا سقف «الإيزاجيل»[1] الموازى «لأبسو».

وبنوا برج «أبسو» العالى المتعدد الطبقات.

ومن أجل «آنو» و«إنليل» و«إيا» بنوا لهم على غراره مسكناً.

(1) معبد «مردوخ» ذو البرج العالى المدرج.

ثم جلس «مردوخ» أمامهم فى جلال.

ومن الأسفل شخصوا بأبصارهم لقرون البرج الرائعة[1].

وبعد أن حققوا بناء «الإيزاجيل» على هذا النحو.

أقام «الأنوناكى» جميعهم مذابحهم الخاصة.

اجتمعوا كلهم.

أما السيد فى المذبح الأكبر الذى شيدوه لإقامته.

فقد أجلس إلى مائدته الآلهة أبناءه قائلاً لهم:

هذه هى بابل مركز إقامتكم.

فخذوا منها مسرتكم، واشفوا غليلكم بالفرح الذى يقدم إليكم.

أقام فيه عندئذٍ الآلهة الكبار.

وأعدوا أكواب الجعة وجلسوا حول المائدة.

وبعد أن أفعموا غبطة.

أقاموا فى «الإيزاجيل» الرهيب الابتهالات.

وخططوا للنواميس الثابتة كلها.

ثم تقاسم الآلهة كلهم، الأماكن فى السماء وعلى الأرض.

جلس الآلهة الكبار وعددهم خمسون.

وبتّ بالقرار آلهة الأقدار وعددهم سبعة.

---

(1) قرون من المعدن توضع فى قمة أبراج المعابد، هى بقية من العبادات القمرية القديمة. انظر - مغامرة العقل الأولى - ص 84 - هامش 1، 2.

فتناول السيد (مردوخ) القوس سلاحه ووضعه أمامهم.

كما رأى آباؤه الآلهة الشبكة التى سبق أن صنعها.

وعندما رأوا دقة صنع القوس.

مجّد آباؤه الأعمال الكبيرة التى أنجزها.

وفى مجمع الالهة رفع «آنو» القوس قائلاً:

بعد أن قبَّله: «ليكن الابن».

ثم أخذ يعد أسماء القوس:

«العدد الطويل» ليكن اسمه الأول،والثانى: «ليبلغ الهدف».

والثالث: «نجمة القوس» وجعلها تسطع فى السماوات.

وقد ثبتها فى المجرات المقدسة رفيقاته.

وهكذا بعد أن حدد «آنو» أقدار القوس.

وضع عرشاً ملكياً أعلى من عروش الملوك.

وفى وسط مجمع الآلهة، أجلسه «آنو».

فأتى الآلهة للاجتماع.

ومجدوا بصورة دائمة قدر «مردوخ».

كما أطلقوا على أنفسهم لعنة[1].

فأقسموا بالماء والزيت ولمسوا الرقبة.

ومنحوه سلطة الملك على الآلهة.

(1) هذه اللعنة تصيب من يخل بالقسم حتى تؤدى إلى قطع رقبة المسئ.



كما ثبتوا له السيادة على آلهة السماوات والأرض.

وقد جعله «إنشار» سيد الجميع ومنحه اسم «أرزيلدو».

وعند ذكر هذا الاسم لنسجد جميعاً كما قال.

ولتصغ الآلهة باحترام إلى ما يقول.

وليكن أمره جازماً فى الأعالى وعلى الأرض.

وليمجد هذا الابن مخلصاً.

ولتكن سيادته الأقوى دون منازع.

وليمارس الرعاية على رعاياه ذوى «الرؤوس السود»[1].

وعلى تعاقب الأزمنة ودون نسيان ليعلنوا سيادته.

وليحدد هو لآبائه تقدمات كبرى منتظمة.

ولتقدم لهم حاجاتهم وليعتن بمذابحهم.

وليعملوا على تصعيد البخور الذى ينتشر بفعل رقى الناس.

وليصنع على الأرض كما صُنع فى السماء.

وليفرض له احترام الرؤوس السود.

ولتستجير البشرية بإلهها.

وعليهم بأمره الإصغاء إلى آلهتهم.

ولتقدم لهم التقدمات النظامية ليكون إلههم وإلهتهم.

غير منسيين من قبلهم، وليحفظوا إلههم فى داخلهم.

---

(1) يعنى البشر.

وليعملوا على أن تطاع أماكنهم المقدسة وتُشاد مذابحهم.

وإذا ما انقسمت «الرؤوس السود» بالنسبة لآلهتهم.

فنحن وتحت كل الأسماء التى سميناه بها، ليكن هو إلهنا.

ولنسمِّ إذن أسماءه الخميسن[1]:

كيما يتفجر مجد ذاته وتتفجر أعماله.

وهكذا كان «مردوخ» منذ ولادته كما أسماء والده «آنو».

لأنه يضمن المراعى والموارد وتكثر المزارب.

إنه هو بسلاحه قد قيد الطوفان بما لم يكن فى الإمكان تبديله.

وأنقذ الآلهة آباءه وهم فى خطر جامح.

نعم يا ابن الشمس كما لقبه الآلهة:

فى ضوء لمعانه لا ينفكون عن السير.

أما البشر الذين خلقهم والذين مُنحو النفّس.

فقد حكم عليهم بخدمة الآلهة حتى ينعم هؤلاء بالراحة.

وأن يكون فعل الخلق والهدم والعفو والقصاص.

بأمره، ويرنون إليه جميعهم.

بلى إن «ماروكا» هو الإله خالقهم.

الذى يُرخى قلب «الأنوناكى» ويطمئن «الأيجيجى».

---

(1) بداية من هذا الجزء وحتى أواخر اللوح السابع، سيبدأ النص فى عرض الأسماء والصفات التى أطلقها الآلهة على «مردوخ».

وليكن «ماراتوكو» عوناً للبلاد والمدينة وسكانها.

وهكذا تستمر الشعوب فى تمجيده على مدى الأزمان.

إن «ميرشاكوش أو» فى غضب ورزانة فهو يغضب ويعفو.

قلبه كبير وروحه تعانق الكل.

و«لوجال - ديمير انكيا» هو الاسم الذي أطلقناه عليه ونحن فى المجلس.

لقد مجدنا أقواله بما يعلو على أقوال الآلهة آبائه.

نعم، إنه سيد آلهة السماء والأرض.

إنه الملك وحين يراه آلهة الأعالى والأرضيين يمتلئون رعباً.

و«لوجال - ديمير انكيا» هو الاسم الذى نطقنا به من أجله.

الذى يعنى بجميع الآلهة.

وهو الذى فى زمن الشدة، مكن لنا فى السماء والأرض.

وخصص «للأيجيجى» و«الأنوناكى»، محطات للراحة.

وهو الذى لذكره، يرتجف الآلهة في مساكنهم.

«أسار لوحى»، هو الاسم الذى دعاه به جده «آنو».

حقاً إنه هو نور الآلهة، وإنه الأمير الجليل.

هو الروح الحارس للآلهة والأرض.

فى صراع مهيب، انقذ ديارنا يوم الشدة.

و«أسار لوحى» أسميناه «نامتيلاكو»، الذي يحيى الموتى.

وهو الذى استرد الآلهة البائدة، وكأنما خلقهم من جديد.

الرب الذى بتعويذته المقدسة، قد بعث الآلهة الميتة.

القاهر فوق الخصوم الماكرين، فلنمجده.

و«أسار لوحى»، أسميناه، ثالثاً، «نامشوب».

الإله الوضاء، ينير لنا طريقنا.

وهكذا أعلن كل من «إنشار» و«لحمو» و«لحامو» ثلاثة من أسمائه.

ولأبنائهم الآلهة قالوا:

«لقد أعلن كل منا ثلاثة من اسمائه.

وكما فعلنا، فليفعل كلكم، ولتعلنوا اسماءه».

فابتهج الآلهة وصدعوا بما أمروا.

تشاوروا فى قاعة المجلس قائلين:

«الابن العلى الذى انتقم لنا.

سندنا وحافظنا، تعالوا نمجد اسمه».

ثم أخذوا مقاعدهم فى مجلسهم وأعلنوا الأقدار.

وراحوا يتضرعون فى جميع الطقوس إلى أسمائه.



اللوح السابع

«أساروا»، واهب الأرض الخصبة، ومالئ عنابر القمح،

منبت الحبوب والبقول، ومحيى الأعشاب.

«أسار اليمنونا»، الجليل نور آبائه.

الذى يوجه قرارات «آنو» و«إنليل» و«إيا»،

وحده القائم بأودهم، الذى وقف لهم مساكنهم،

الذى أفاضت حريته صيداً وفيرا.

«توتو»، بطل خلاصهم ونجاتهم هو.

فليطهر هياكلهم ويتركهم ينعمون.

ويجعل لهم تعاويذ، تطمئن بها نفوسهم.

فإذا اضطربوا أنزل السكينة عليهم،

حقاً أنه المجد بين الآلهة.

لا يدانيه منهم أحد ولايقرن به.

و«توتو» هو «زيوكينا» به يحيا كل الآلهة،

الذى جعل لهم سماء وضاء.

مالك مصيرهم وسيد مسالكهم.

حى أبداً فى قلوب عباده، لاينسون نعمته عليهم.

و«توتو» هو ثالثاً «زيكو»، رب القداسة.

إله النسمة الخالقة، مجيب دعاء البشر،

هو الذى يعطيهم.

الذى حقق رغباتنا.

الذى تنسمنا أنفاسه أيام البلوى.

ليسبُح الجميع بحمده.

«توتو»، ليعظم اسمك، وليكن رابعاً «أجاكو».

رب التميمة المقدسة، الذى بعث الموتى.

والذى راف بالآلهة المقهورة.

أزاح عن أعدائه من الالهة، عبء العمل المفروض.

فخلق الإنسان لهم محرراً.

هو الرحيم الذى يهب الحياة.

كلماته باقية لا تُنسى.

عند البشر الذين خلقتهم يداه.

و«توتو» هو خامساً «توكو» الذى تردد الشفاه تميمته.

تميمته المقدسة التى اقتلعت الأشرار.

«شازو» المطلع على افئدة الآلهة، وعالم الأسرار.

لا يهرب من بطشه الأشرار.

اسس مجمع الآلهة وافرح قلوبهم.

وبسط عليهم حمايته وأخضع العصاة.

اقام المعدل ووضع حداً للغو الكلام.

ميز بين الخطأ والصواب.

«شازو» المجد ثانية تحت اسم «زيسى» الذى يعنى المهاجم.

هو الذى طرد من جسد الآلهة الخوف.

و«شازو» هو ثالثاً «سوحريم» الذى أباد جميع الأعداء.

وبعثر خططهم وجعلها هباءً منثوراً.

فلتتغن باسمه كل البلاد.

وشازو هو خامساً «زاحريم»، رب كل شئ.

الذى أباد الأعداء جميعاً، والذى يجزى بالخير ويجزى بالشر.

أعاد الالهة الآبقة إلى مساكنها.

فليبق اسمه على مر الأزمان.

وسادساً فليعبد «شازو» فى كل مكان على إنه «زاحجوريم».

قاهر الأعداء فى ساحة القتال.

«اينبيلولو»، واهب الخيرات.

هو الجليل الذى أعطى لكل اسمه.

نظم المراعى وموارد المياه.

فجر الأرض عيوناً، واجرى الماء انهاراً.

ليمجد ثانياً على إنه «ابيادون»، الذى يروى الحقول.

حاكم السماء والأرض، موزع الزرع والكلأ.

الذى نظم السدود والقنوات، ورسم خطوط المحراث.

وليمتدح ثالثاً على إنه «جوكال»، حاكم مزارع الآلهة.

رب الغلال الكثيرة والمحاصيل الكثيرة.

واهب الثروة الذى أغنى المساكن.

مانح الذرة، ومنبت الشعير.

و«اينبيلولو» هو «حيجال»،يتولى أمور المخازن.

هو الذى يمطر الخيرات على الأرض الواسعة ويكثر الخضرة.

«زيرسير»، الذى أقام جبلاً فوق تعامة.

والذى بسلاحه قد شق جسدها.

الساهر على البلاد الراعى لسكانها.

الذى فى شعره توجد الزراعة والحقل والأخدود[1].

الذى عبر البحر الغاضب بآبائه.

وكجسر مر إلى ساحة المعركة.

«زيرسير» ليكن اسمك ثانياً «ملخ».

---

(1) هذا البيت موجود مكانه فراغ بكتاب فراس السواح - مغامرة العقل الأولى - ص 90، وموجود بسلسلة الأساطير السورية - ص 75.

البحر زورقه وهو الملاح.

«جيل»، الذى يكدس القمح أكواما.

خالق الذرة والشعير، واهب البذور للأرض.

«جيل - ما»، خالق الأشياء الباقية.

يحفظ تماسك الآلهة، مصدر كل أمر حسن.

«اجيل - ما» الذى يرفع التاج ويراقب الخبثاء[1].

الذى سخر السحاب فوق المياه، ورفع السموات.

إنه «زلوم» الذ يخضع الحقول للآلهة الذين يحددون الانتاج[2].

ويعطى الحصص والتقدمات المنتظمة ويعتنى بالمعابد[3].

و«زلوم» هو ثانياً «مومو»، خالق السماء والأرض ومجرى السحاب.

الذى طهر السماء والأرض.

لا يدانيه فى قوته أحد بين الآلهة.

إنه «جيش - نومّو - ناب»، الذى خلق البشر وخلق جهات العالم الأربع.

دمر اتباع «تعامة»، وصنع من أجسادهم البشر.

إنه «لوجالا دبور»، الذي حطم صنيع تعامة ونزع سلاحها.

---

(1) ترجمة فراس السواح كالتالى:

«اغليما»، الذى مزق تاج [....].

(2) ترجمة فراس السواح - كالتالى:

«زلوم»، الذى حدد [....].

(3) ترجمة فراس السواح كالتالى:

مقسم الأرزاق، الذى يسهر على [....].

الذي شيد أساساته من الأمام والخلف بشكل دائم.

إنه «باجليونا»، له الصدارة فى كل البلاء، لا حد لقوته.

العلى بين إخوانه الآلهة، وسيدهم جميعاً.

إنه «لو جال - دورماخ» حلقة الوصل بين الآلهة، سيد الرباط الأعظم.

الذى مُجّد فى بيت الملك وهو الأكثر بهاءً كل الآلهة.

إنه «آرا - نونّا» مستشار «إيا» خالق الآلهة آبائه.

الذى لا يساويه أى إله فى مقامه.

«دومو - دو - كو» الذى يتجدد تلقائياً بيته المقدس.

«دومو - دو - كو» الذى لا يقطع «إنليل» برأى دون مشورته.

«لوجال - لا - أنّا» الإله الذى قوته أعظم من قوة الآلهة جميعاً.

مالك الحكمة كلها، واسع الفهم عميقه.

«اير - كينجو» الذى سحق «كينجو» فى المعركة.

الذى نظم قيادة كل شئ ووطد السيادة.

«كين - ما» الذى يقود كل الآلهة ويسدى النصح.

لذكره يرتعش الآلهة فرقاً، ولاسمه قوة العاصفة.

«أى - سيكور» الذى يتبوأ مكاناً عالياً فى بيت العبادة.

وتقدم له الآلهة الهدايا.

ومنه فليأخذ كل مهامه وصلاحياته.

وبدونه لا يقدر أحد على الخلق المبدع.

سكان الأقاليم الأربع من صنع يديه،

ولا إله غيره يعرف يومهم الموعود.

و«جيبيل» الذى يحدد مصدر الأسلحة[1].

خلق فى صراعه مع تعامة الأشياء البديعة.

واسع الفهم، حكيم، ذكى.

قلب لا يسبر غوره وما فى مقدور أحد من الآلهة فهمه.

«آدو»، سيكون اسمه، يغطى مساحة السماء.

تمزق السحاب رعوده، وتعطى للناس الحياة.

«أشارو» الذى نظم آلهة الأقدار.

نعم، إنه هو الذى يُعنى بالبشرية كلها.

«نبيرو»، القيم على مسالك السموات والأرض.

فكل ضال عن طريقه، من أعلى ومن أسفل، يأتى إليه.

«فنيبرو» هو النجم الساطع فى السماء.

إنها تحتل المركز القطبى والنجوم كلها ترنوا إليه.

وهو الذى يقطع عرض البحر دون توقف.

اسمه «نيبرو» الذى يشغل مكان المركز.

ويحفظ مسار النجوم فى السماء.

---

(1) ترجمة فراس السواح كالتالى.

«جيرو» بانى الـ [....] للسلاح.

ويرعى الآلهة كما ترعى الشياه.

ليقيد «تعامة» ويختصر حياتها لتصبح قصيرة.

وبما أنه خالق المكان، وصانع الأرض الراسخة.

فقد دعاه الأب «إنليل» بسيد الأرضين.

وكل تلك الأسماء التى أطلقها عليه آلهة «الايجيجى».

ما أن سمعها «إيا» حتى اعتراه فرح شديد.

ثم قال: «هو الذى عظم أسماء آباؤه.

سيكون نظيراً لى ويكون اسمه «إيا».

فيغدو قيماً على حقوقى جميعاً.

ولينظم أيضاً كل قراراتى.

وأخيراً بالاسم «خمسين» الآلهة العظام دعوه،

لأن اسماءه خمسون، فجعلوه العظيم.

وحتى تُحفظ فإن الأول يفصح عنها[1].

وليرددها الأب، ويعيد ذكرها ويعلمها الابن.

ولتكن معروفة لدى الراعى الصالح وصاحب الماشية.

كيلا تكون مهملة.

---

(1) بداية من هذا السطر وحتى نهاية النص غير موجود بكتاب مغامرة العقل الأولى لفراس سواح.

راجع سلسلة الأساطير السورية - ص 75 - 76.

ولتكن بلاده مزدهرة وليكن هو نفسه سالماً.

وكلماته دائمة وأوامره ثابتة.

أما ما فاه به فمه فليس ثمة إله يقوى على تغييره.

وإن نظر غاضباً فلا يلوى رقبته.

وإن أثير فليس ثمة إله يقف فى وجه غضبه.

ليس فى الوسع سبر قلبه، فروحه واسعة.

والخاطئ ومدنس الأقداس مكروهان بنظره.

وهذا التجلى الذى يتحدثون عنه قبله.

فى واحد من كتبه حتى تتعلمه الأجيال القادمة.

عن البطل «مردوخ» الذى خلقه آلهة «الايجيجى».

فليعلن عن اسمه.

وليعلموا نشيد «مردوخ».

الذى قيد «تعامة» واستولى على الملك.



الفصل الرابع

أساطير الخلق السورية

الفصل الرابع
أسطورة الخلق السورية

حتى الربع الأول من هذا القرن، كانت المعلومات التى وصلت إلينا عن الميثولوجيا الكنعانية (السورية) محدودة جداً، وكانت هذه المعلومات المحدودة، مشكوك فى صحتها إلى حد ما، ذلك لأنها لم ترد إلينا مباشرة عن الكنعانيين أنفسهم، فهى إما جاءت إلينا عن طريق النصوص التوراتية التى ذخرت بكثير من اسماء الآلهة الكنعانية، أو عن طريق مصادر متأخرة نسبياً، ومتأثرة بأساليب التفكير الأجنبية[1]، وعلى كل حال لم تكن كل هذه المصادر كنعانية أصلية.

أما الآن، وبعد اكتشاف مدينة «أوغاريت» على الساحل السورى، وبعد فك رموز الألواح التى عثر عليها فى معبد «بعل»، وإثبات أن هذه الرموز إنما هى أبجدية تنتمى إلى اللغات السامية، بعد كل هذا، أصبح لدينا مصادر أصيلة عن الميثولوجيا السورية، كما دونها أهلها، بلغة تقارب بشدة اللغة العربية[2].

(1) من هذه المصادر الأجنبية «تاريخ الفينقيين» للمؤلف فيلون الجبيلى (القرن الثانى والأول قبل الميلاد) من أصل كتابات أوزيب دى سيزارى (القرن الرابع بعد الميلاد).

(2) وعلى سبيل المثال لتوضيح هذا التقارب بين اللغتين: فعبارة (يعرب بحدره ويبكى) هى بالعربية (يدخل خدره ويبكى).

لمزيد من الأمثلة راجع: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى - ص 110.

وقبل أن نعرض الأسطورة الخلق السورية، يكون حرى بنا أن نبدأ بتعريف بتلك الآلهة، وذلك حتى يتيسر على القارئ متابعة أحداث الأسطورة.



أولاً: تعريف بالآلهة السورية

- إيل:

كان كهنة سوريا يعترفون بإله عام يضم فى شخصه جميع الآلهة ويسمونه «إيل» أو «إلى» أو «إلو» كإلوهيم اليهود، ولكن الشعب لم يكن يلقى بالاً إلى هذا التجريد المعنوى الهادئ، فهم يريدون إلهاً قريباً منهم، لذا - وكما سنرى - فقد عبدوا الإله «بعل»[1].

وقد شاعت عبادة هذا الإله لدى جميع الشعوب السورية، فنجده فى الحواضر الفينيقية، والأرامية فى الألف الثالث قبل الميلاد، كما نجده فى مدينة «تدمر» وغيرها من الحواضر السورية فى العصور الكلاسكية المتأخرة[2].

ويرى البعض[3] أن الإله «إيل» - الذى نحن بصدده - قد عبده العبرانيون فى مطلع تاريخهم ، وكان إله أجدادهم الأولين كما يحدثنا بذلك كتاب التوراة فى سفره الأول.

ونحن لسنا مع هذا الرأى، صحيح أن اسم «إيل» قد جاء ذكره فى سفر التكوين أكثر من مرة، ونذكر منه هذا النص: «فدعت (ساراى) اسم الرب

---

(1) انظر - ول ديوارنت، قصة الحضارة جـ 2 - ص 38.

(2) فراس السواح - مغامرة العقل الأولى - ص 110 - 111.

(3) فراس السواح - المرجع السابق.

الذى تكلم معها: «أنت إيل ربى»[1] فليس معنى أن الأسم واحد أن الاعتقاد بنفس الإله - ومقوماته واحداً، فسارة أو «ساراى» مثلها مثل «إبراهيم» عليه السلام، لم تعبد إلا إلهاً واحداً، أما كون الاسم واحد، فهذا لأن العبرانيين كانوا من الأقوام الساميين الذين يتحدثون لغة سامية.

وعلى كل حال، فقد كان «إيل» الإله الأكبر السامى الذى يرأس مجمع الآلهة السورية، وكانت تمثله النصوص على هيئة شيخ عريق له لحية بيضاء تجسيداً للحكمة والعدل والعطف. إنه الإله الأعظم و «أبو الآلهة» والبشر، و «خالق المخلوقات»، كما يسمى بـ «أبى السنين» ، وغالباً ما يوصف بالعطوف ذى القلب الكبير. وهو يتحمس جداً بتدخل «بعل» لمصلحة البشر، وعندما يختفى «بعل» كانت تتحرك لديه مشاعر الشفقة لألام البشرية[2].

ومن صفات «إيل» وصفه بالثور، فيقال: «الثور إيل»، وهذا يدل دون شك على قوته وقدرته الخالقة، غير أن الشيخ المهيب ذا الفهم العميق العطوف فى جميع مشاعره وتصرفاته، لا يسكن فى أي مكان لا على الأرض ولا فى السماء؛ بل فى مكان بعيد محاط بالأسرار مثل: عند «ينابيع الأنهار» وفى «وسط مياه المحيطين» وهو هنا يجتمع بالآلهة والإلهات، أبنائه وبناته[3].

---

(1) سفر التكوين . 16 : 13

(2) رينيه لابات وآخرون، سلسلة الأساطير السورية- ص 424.

(3) السابق.

وعلى الرغم من حكمة «إيل» وقدرته، فإنه يبدو فى بعض النصوص الأوغاريتية التى تم العثور عليها وكأنه شخصية غير فاعلة تفضل السكون على الحركة، كما تفضل السهاد واحتساء الخمر بحسب المناسبات والدليل على ذلك ظهور «إيل» فى بعض النصوص سكران يترنح وهو يفتش عن غرفته(1).

- **عشيرة:**

هى الإلهة الأم الكبرى، وزوجة الإله «إيل» وكانت تدعى أيضاً «إيلات» نسبة إلى «إيل» ، ومن ألقابها «سيدة البحر»، وما زال اسمها حتى الأن يطلق على الخليج المعروف فى البحر الأحمر باسم خليج إيلات(2).

وتسمى أيضاً «السيدة» الأم المغذية وأطفالها الإلهيون «يرضعون حلمات ثدى عشيرة» ، وقد عثر فى «رأس شمر» على لوحة جميلة من العاج تمثل إلهة ترضع يافعين، وعلى الرغم من كل هذا فإنها بالدرجة الأولى إلهة بحرية، وغالباً ما تأتى تسميتها «عشيرة اليم» أى عشيرة البحر، وقد تعنى هذه اللفظة السير على سطح مياه لبحر(3).

- **بعل:**

إذا كان الإله «إيل» يجسد الحكمة والقدم ومعرفة كل شىء والقدرة على التقدير فى نهاية الأمر، فإن «بعل» يجسد ثورة الشباب والجموح

---

(1) السابق.

(2) مغامرة العقل الأولى - ص 111.

(3) سلسلة الأساطير السورية - ص 424.

والنصر والتدخل الفاعل فى أمر العالم فى سبيل طرد العناصر الطبيعية المؤدية إلى الفوضى، وذلك من أجل تنظيم الكون لمصلحة حياة البشر[1].

وبعل أوغاريت هو بالدرجة الأولى إله المطر والسحاب، والصاعقة، وهو من هذه الناحية يشبه «تيشوب» إله بلاد الأناضول. وقد ورد اسم بعل فى النصوص الأوغاريتية تحت لفظة «حد» أو «حدد»[2].

وبصفته إله الزوابع والعواصف فإنه يمتشق الصاعقة والهراوة، فهو إله الحرب المتأهب لضرب أعداءه، وهو يظهر فى الرسوم حاملاً الصاعقة، وفى حالة قتال يلبس على رأسه خوذة ذات رأس مذنب ويحمل بيده اليمنى الهراوة وبيده اليسرى رمحاً يدل على الصاعقة المنذرة بهطول المطر[3] والوصف الذى اشتهر به «بعل» هو «الفائق القدرة»، وباللغة الأوغاريتية «البعلين»، ولعل هذا الوصف قد أثار نوعاً من الخلط بين «بعل» والإله «علين» المقدر أنه ابن «بعل».

وبعل يسكن بعض مطاوى أو قمم جبل «سافون» ويعنى اسم «سافون» الشمال، كما يمكن أن يعنى «السحابة المظلمة» وينطبق هذا الاسم على جبل «الأقرع» الواقع شمالى أوغاريت المسمى قديماً جبل «كاسيوس»، ومسكن بعل الرئيسى يحمل اسمه إذ يقال «بعل سافون».، ومن المعتقد لديهم أن قمة «سافون» هى عند ملتقى الأرض بالسماء، علماً بأن قمة هذا الجبل مغطاة بالغيوم منذ بدء الشتاء[4].

---

(1) المصدران السابقان.

(2) وتحت هذا الاسم دخل مجمع الآلهة البابلية.

(3) المصدران السابقان.

(4) سلسلة الأساطير السورية - ص 426.

و «بعل» بوصفه إله المطر والعواصف، فإن وظائفه تقع ضمن الأساطير والطقوس الزراعية أساس ديانة الأوغاريتيين، فهو موزع الأمطار، وسيد المياه، وينبوع الأرض المغذية وتجديد الطبيعة التى تموت وتحيا فى كل سنة، وعلى ذلك فإنه يلعب دوراً رئيساً فى ديانة المزارعين والرعاة، وما دامت الزراعة هى النشاط والمحرك الرئيسى للأوغاديتيين المقيمين فوق الأرض الخصبة قرب البحر، فعلى ذلك يكون بعل إلهاً للخصب[1].

- تقديم الأطفال كقرابين لبعل:

كان الشعب السورى القديم إذا أصابه أمر جلل يضحون بأطفالهم قرباناً لبعل، كما كان الفينيقيون يفعلون، فكان الاباء يأتون إلى الحفل وقد أخذوا زينتهم كأنهم فى يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم وهم يحترقون فى حجر الإله. على أنهم كانوا عادة يكتفون بتضحيات أقل من هذه وحشية، فكان الكهنة يضربون أنفسهم حتى تلطخ المذبح دماؤهم، أو تفتدى حياة الطفل بغلفته، أو ينزل القساوسة فى عليائهم فيقبلون مبلغاً من المال يقدمونه للإله بدل الغلفة لقد كان الواجب أن يسترضى الإله بطريقة ما حتى يرضى، لأن عباده قد جعلوه صورة من أنفسهم، وحلماً من أحلامهم، ولم يكن يُعنى بحياة البشر أو يأبه بعويل النساء[2].

(1) السابق.

(2) ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ 2 - ص 318 - 319.

- **الإله «موت»:**

وهو نقيض الإله «بعل»؛ فإذا كان هذا هو إله المطر والخصب ، فإن «موت» هو إله الجفاف والحرارة والحصاد والعالم الأسفل، وهو فى صراع دائم مع «بعل».

والمجابهة السنوية بين «بعل» إله الخصب و «موت» إله الحصاد تدل بصورة أخاذة على تناوب الفصول، كما أن نزول «بعل» إلى شدق «موت» الجائع يدل على أسطورة سقوط الأمطار التى تسقى التربة الجافة بفعل جفاف الصيف فى الشرق الشبيه بفصل «الموت». وهذا السقوط ضرورى حتى تبعث التربة حية من جديد [1].

- **الإله «يم»:**

رغم أن الإله «بعل» ليس إلهاً خالقاً كما كان «إيل» إلا أنه يجسد نوعاً ما مبدأ الحياة، وهو بهذه الصفة عليه أن يواجه فى قتال عنيف القوى المدمرة، ومن بين هذه القوى يوجد الإله «يم» البحر اللامتناهى غير المحدود هيجانه، والذى يهدد الأرض الخصبة وحياة البشر على السواحل، فيتحتم والحالة هذه، على بعل، أن يواجه اليم (وهى نفس الكلمة العربية التى تعنى البحر) فى الدفاع عن البشر.

واليم فى الميثولوجيا الأوغاريتية هو إله يحمل لقب الأمير، وهو أحد أولاد «إيل»، وتقدم له الذبائح ويحتفل بطقوسه. فالميثولوجيا الأوغاريتية

---

(1) مغامرة العقل الأولى - ص 111، وسلسلة الأساطير السورية - ص 427.

تخضع «يم» إلى قتال واجتياح مع الإله «بعل»، الموصوف «بقاضى النهر»، وهذا يشير إلى أن الأنهار تصب فى البحر السيد الذى يجسد الأنهار[1].

- الإلهة عناة:

وهى حبيبة الإله «بعل»، وهى تحتل فى الهيكل الإلهى الأوغاريتى مركزاً مميزاً، إذا تجمع بين وظيفتين مهمتين، فهى من ناحية إلهة مخصبة، وإلهة حب، ومن ناحية أخرى، فهى إلهة حرب.

وبالنسبة للصفة الأولى، تكون حبيبة أخيها بعل وعند اللزوم تؤمن له قطعياً من الأبقار لإخصابها، أما الصفة الثانية فإنها تمزق بكل شراسة أعداء بعل مقدمة بفرح عظيم على مذبحة هائلة، فدور الدم معروف جيداً فى الطقوس الخصيبة، فإنه يراق على التربة ليخصبها كما أنه يخصب البشر والحيوانات[2].

- الإلهة «عشتارت» والإله «آدونى»:

كما كانت «إنانا» السومرية و «عشتار» البابلية، إلهتان فى واحدة، كذلك الأمر فيما يتعلق بعناة وعشتارت حيث الشخصية واحدة، والتسمية اختلفت تبعاً للزمان والمكان، وكما مضت «عشتار» تبحث عن «تموز»، و «عناة» تبحث عن «بعل»، كذلك تمضى «عشتارت» أو «عشتورت» - كما عرفها الفينيقيون - تبحث عن «آدونى»[3].

---

(1) سلسلة الأساطير - ص 427 , 428.
(2) السابق.
(3) مغامرة الإولى - ص 375 - 376.

و «آدونى» - تعنى ربى أو سيدى - هو اسم آخر للإله السورى «بعل» ، والكلمة آرامية أصلها «آدون» أى الرب أو السيد. وعندما وصلت عبادة «آدونى» إلى بلاد الإغريق، أضيف إلى اسمه حرف الـ «س» فغدا اسمه «أدونيس»، وقد عُبد «بعل» تحت هذا الاسم لدى فينيقيى الجنوب فى مدينة «بيبلوس» التى كان البردى من أهم سلعها التجارية. فاشتق اليونان من اسمها اسم «الكتاب» فى لغتهم «ببلو»Biblo، ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة Bible الإنجليزية اسماً للكتاب المقدس[1].

و «أدونيس» أو «آدونى» لم يمت كبعل - كما سنرى - فى صراعه مع الإله «موت» كما تحدثنا ألواح «رأس شمر»، وإنما قام خنزير برى بقتله فى غابات لبنان[2].

- **عشتورت والدعارة الدينية:**

وكانت الدعارة الدينية منتشرة فى البلاد، فكان خصب التربة يرمز له فى سوريا كما كان يرمز له فى بلاد آسيا الغربية كلها بأم عظيمة أو إلهة اتصالها الجنسى بعشيقها هو الذى يوحى إلى جميع جهود الطبيعة وعملياتها الإنتاجية. فكان النساء الذين يعبدون «عشتورت» فى «بيبلوس» يقدمن لها غدائرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن حبه فى جوار الهياكل[3].

---

(1) السابق، وقصة الحضارة - جـ 2 - ص 313 - 314.

(2) مغامرة العقل الأولى - ص 376.

(3) قصة الحضارة - جـ 2- ص 315 318.

ولم تكن التضحية بالبكارة فى الهياكل عملاً يتقرب به إلى «عشتورت» وحسب، بل كان فوق ذلك مشاركة لها فى التهتك الذى يرجى منه أن يوحى إلى الأرض إيحاءً قوياً لا تستطيع مقاومته، وأن يضمن تكاثر النبات والحيوان والإنسان(1).

وكان عيد «عشتورت» السورية كعيد «سيبيل» فى فريجيا يحتفل به فى هيرابوليس حوالى الاعتدال الربيعى بحرارة تكاد تبلغ حد الجنون؛ فكانت نغمات الناى ودق الطبول تمتزج بعويل النساء على «آدونى» سيد «عشتورت» الميت. وكان الكهنة «الخصيان» يرقصون رقصاً عاصفاً عجاجاً، ويضربون أجسامهم بالسكاكين. وفى آخر الأمر كانت الحماسة تغلب الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل إلا ليشاهدوه، فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طول حياتهم لخدمة الإلهة. فإذا جن الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفى مجهول، وفتحوا قبر الإله الشاب ونادوا نداء الظافرين: «أن آدونى الإله قد قام من بين الأموات»، ثم يقومون بمس شفاه عُبَّاده ببلسم فى أيديهم وأسرُّوا إليهم وعدهم بأنهم هم أيضاً سيقومون من قبورهم فى يوم من الأيام(2).

- **الإله «داجون»:**

والد الإله «بعل»، وهو فى أصله إله زراعى ذو علاقة بالقمح بصورة رئيسية ومن هنا نفهم صلته بالإله بعل الذى يمثل الخصب، فلولاه ما وجدت الزراعة، و «داجون» هذا هو الإله الأكبر للأشوريين وسامى

---

(1) السابق - ص 318.

(2) السابق.

الغرب المقيمين فى شمالى بلاد ما بين النهرين، وكان محترماً جداً لدى شعوب بابل وآشور كما أنه فرض نفسه على كل شعوب البحر المتوسط[1].

على أننا نجد «داجون» وقد تحول من إله زراعى إلى إله بحرى لدى الفلسطينيين، فيصوره لنا كتاب التوراة على هيئة إله له ذيل سمكة، وربما كان تحول زراع القنح إلى ملاحين، قد جلب معه تحول فى إله القمح وهو الغذاء الرئيسى للمزراع، إلى إله بحرى ذو علاقة بالأسماك وهى الغذاء الرئيسى لدى البحارة والصيادين من سكان الشواطئ[2].

- **الإله قصير:**

هو إله البنائين والحدادين، وهو الذى صنع الهراوتين العجيبتين اللتين سمحتا إلبى بعل - كما سنرى - بالتغلب على إله البحر «يم»، وقبل أن يقدمهما إله الحدادة «قصير» إلى «بعل» أعلن اسم كل هراوة، وبالفعل حملت كل منهما اسماً رمزياً له قوة سحرية[3].

الإلهة شباس:

إلهة الشمس عند الكنعانيين، وهى أنثى وليست إله ذكر كالإله «شمش» عند البابليين، أو «أوتو» عند السومريين، و «شباس» توصف بأنها «القنديل الإلهى»، وتبدو بنوع خاص كرسولة الآلهة،و وغالباً ما تكون لسان حال «إيل»، والصفة الرسولية التى يطلقونها عليها هى بسبب الحركة الدائمة للشمس الوسيطة بين السماء والأرض، على أن دور

(1) سلسلة الأساطير السورية - ص 431، مغامرة العقل الأولى - ص 381.
(2) مغامرة العقل الأولى - ص 381.
(3) سلسلة الأساطير السورية - ص 432.

«شباس» القليل الأهمية فى الأساطير الأوغاريتية يدل على أن ديانة أوغاريت لا تهتم بالميثولوجيا الشمسية، فيبدو عمل الإله مرتبطاً قبل كل شىء بالأعمال الزراعية ومن ثم بالخصب [1].



(1) السابق.

ثانياً: أسطورة بعل وإله البحر «يم»

تقع أحداث هذه الأسطورة[1] - والتى تعرض للقتال الذى دار بين يم وبعل - فى ثلاثة فصول.

الفصل الأول:

هذا الفصل يبدأ باحتجاج إله يبدو أنه «أشتار»، وذلك لأن الإله «إيل» كان قد أعطى الإذن للإله «يم» ببناء قصر له، وكان «أشتار» يطمع فى أن يكون له قصر هو الآخر، ولكن «إيل» يرفض على أساس أن «أشتار» ليس له زوجة مثل «يم»، وبتدقيق النظر يمكن لنا أن نستنتج أن «أشتار» هذا هو نفسه - فى هذا الموضع - الإله بعل، فأولاً: ليس من المنطقى أن يحتج «أشتار» ثم يهدد «بعل» - كما سنرى - الإله «يم»، ثم تدور بينهما رحى الحرب، وثانياً: سنجد أن هناك أسطورة يطالب فيها الإله «بعل» ببناء قصر له. وعلى ذلك يمكن أن يكون سبب الصدام الذى وقع بين الإلهين «يم» ، و«بعل» مرجعه إلى أن الثانى كان يرى أنه الأحق والأجدر ببناء هذا القصر من الأول.

(1) حول هذه الأسطورة انظر:

- رينيه لابات وآخرون - سلسلة الأساطير السورية - ديانات الشرق الأوسط . وفراس السواح ، مغامرة العقل الأولى.

وعندئذٍ ذهب (اشتار)[1] لتوه إلى «إيل».

حيث تتدفق مياه الأنهار.

فى وسط مجرى المحيطين.

لقد بلغ منطقة «إيل».

ودخل مملكة «إبى السنين»[2].

فانحنى وركع عند قدمى «إيل».

مقدماً له كل تمجيد (وقال له):

لقد بنى «قصير حسيس» مقاماً لـ «يم».

بنى قصراً للسيد «نهر»[3] ليكون مقاماً له.

فليسرعوا فى بناء المسكن!

وليسرعوا فى بناء القصر!

يوجد أربعة أسطر مخرومة، ونجد أن «شباس» إلهة الشمس ورسولة الآلهة قد رفضت ادعاءات «أشتار»، فأجابها هذا الإله بالتهديد.

صرخ القنديل الإلهى [4] باعلى صوته قائلاً:

---

(1) أشتار على ما رجحناه هو نفسه الإله «بعل» والكلمات الموضوعة بين القوسين الكبيرين إضافة من عندى.

(1) لقب للإله «إيل» وقد أعطى اليهود نفس اللقب لـ «يهوه» فقالوا «أبا الأيام» . سفر دانيال : 7 : 9 - 10.

(3) نهر: من أسماء «يم» وإذا كانت كلمة «يم» تعنى فى العربية البحر كما هو معناها فى الأوغاريتية، فإن نهر تعنى كما فى العربية المياه العذبة. فالإله يم كان إله المياه المالحة والمياه العذبة أيضاً.

(4) القنديل الإلهى: وصف من أوصاف الإلهة «شباس» إلهة الشمس.

أرجوك ان تصغى إلى «يا اشتار».

إن الثور «إيل» أباك سيبدى احترامه.

للأمير «يم».

للسيد «نهر».

فكيف للثور إيل أبيك أن يستجيب (لك).

إنه دون شك سيزيل دعائم عرشك.

وسيكسر حتماً صولجان سيادتك.

فيجيب «أشتار»:

... الثور إيل أبى....

انا لا املك بيتاً كبقية الآلهة.

ولا باحة قصر كالآلهة.

وسأنزل مفردى.

وفى حلقى سيغرق المهرة الفنانون

الذين يعملون فى مسكن الأمير «يم».

فى قصر السيد «نهر».

(فقالت شباس) : إن الثور «إيل» أباه سيبدى احترامه.

امام الأمير «يم».

امام السيد نهر.

وأنا إن حكمت أنت وإن لم تحكم.

فانظر (يا اشتار) ها انت من دون زوجة كبقية الآلهة.

.... والأمير «يم» (له زوجة).

.... السيد (نهر) هو....

لقد أورسلنى.

فأجاب «أشتار».

- **الفصل الثانى:**

فى هذا الفصل من الأسطورة ، يبدأ الإله «بعل» الذى هو تفسه «أشتار» فى تهديد الإله «يم» مما يثير غضب الأخير، فيرسل رسله إلى مجمع الآلهة مطالباً إياهم تسليم الإله «بعل» ليصبح عبداً له، فخاف مجمع الآلهة من بطش «يم»، وكاد الإله «إيل» أن يسلمهم «بعل»، لأنه كان يستشعر تفوق الإله «يم»، إلا أن «بعل» ثار هائجاً، وكاد أن يقتل رُسل «يم»، غير أن «عشتارت» و «عناة» منعتاه من هذه الفعلة، حيث أن القواعد والنواميس تمنع قتل الرسل، فأطلق «بعل» كامل حريتهم، وهو فى شدة الغضب متوعداً الإله «يم».

لقد وقفت فى وجه...

فأجاب «بعل» الكلى القدرة.

هل يمكن أن تطرد من على العرش الملكى.

من مركز ملكك؟

سيضرب «أيمر»[1] راسك أيها الأمير «يم».

ويضرب «يغرش»[2] جمجمتك، أيها السيد «نهر».

(1,2) «أيمر» و «يغرش» اسم الهراوتين اللتين صنعهما «قصير حسيس» للإله «بعل» ليقاتل الإله «يم».

فليكسر «حورون»[1] راسك ايها الأمير «يم».

ليكسر «حورون» راسك أيها السيد «نهر».

وعندئذ يتملك «يم» الغضب، فيرسل رسله إلى مجلس الآلهة مطالباً إياهم تسليم «بعل».

لقد أرسل «يم» رسلا.

السيد «نهر» أرسل سفراءه.

وفى حبور، العاطفة... قال:

امضيا أيها الشابان[2].

امضيا ولا تتقاعسا.

ومن ثم تحولا إلى مجلس الآلهة.

فى وسط جبل «لال».

عند قدمى «إيل» لا تسجدا.

وأمام مجمع الآلهة لا تركعا.

بل اقرأوا الرسالة.

قولا للثور «إيل» أبى.

واعلنا أمام مجمع الآلهة.

رسالة «يم» سيدكما.

(1) حورون: إله شافى وهدام فى ذلت الوقت.

(2) بدءً من هذا البيت يبدأ فراس السواح فى عرض نص الأسطورة فى كتابه «مغامرة العقل الأولى».

رسالة السيد «نهر».

سلموا إلى ، ذاك الذى تؤون.

ذاك الذى كلكم تؤون.

سلموا إلىّ «بعل» وأنصاره.

ابن داجون[1]، حتى أرث ذهبه.

فأنطلق الشابان

ودونما تقاعس.

حتى وصلا إلى وسط جبل «لال».

شطر مجمع الآلهة.

وكان الآلهة جالسين لتناول الطعام.

والإلهات جلسن أيضاً لتناول الطعام.

وكان «بعل» يجلس إلى جانب «إيل».

فلما رأى الآلهة الرسولين.

مبعوثا السيد «نهر».

اخفض الآلهة رؤوسهم حتى الركب.

نعم، وهم على عروش جلالهم.

فوبخهم «بعل» قائلاً:

لماذا أطرقتم أيها الآلهة؟

---

(1) داجون هو إله القمح وأبو الإله «بعل».

لماذا أحنيتم رؤوسكن حتى الركب؟

وعلى عروض جلالكم؟!

دعوا الرسولين القادمين يقرآن دعوهما يقرآن رسالة «يم».

رسالة السيد «نهر».

وارفعوا رؤوسكم أيها الألهة.

(ارفعوا رؤوسكم) من انحنائها.

نعم، (ارفعوها) وأنتم على عروش جلالكم.

وسأنبرى أنا للرد.

على رسل «يم».

على رسل السيد «نهر».

فرفع الألهة رؤوسهم.

وعندئذٍ وصل رسولا «يم».

سفراء السيد «نهر».

فلم يرتميا على قدمى «إنليل»

ولم يسجدا فى مجلس الآلهة.

لقد وقفا...

وأعادا تلاوة الرسالة.

فلمعت نار وناران.

وامتشقا سيفاً مسنونة فى اليد اليمنى.

وقالا إلى الثور «إيل» أبيه:

«رسالة من «يم» سيدك.

من سيدك «نهر».

سلِّم يا «إيل» من أنت تحميه

ذلك الذى كلكم تؤون.

سلموا إلى «بعل» وأنصاره.

ابن داجون، حتى أرث ذهبه».

فأجاب الثور «إيل» أبوه:

«ليكن «بعل» عبداً لك أيها الأمير «يم».

ليكن «بعل» عبداً لك إلى الأبد.

ابن داجون ليكن أسيرك

وكجميع الآلهة، سوف يقدم لك الطاعة.

نعم، وسيبذل لك التقدمات كأبناء القداسة».

فارتعد «بعل» من شدة الغضب.

فأمسك بيده سكيناً.

وانتضى بالأخر خنجراً.

ولوح بهما معتزماً قتل الشابين.

أما «عناة» فقد أمسكت بيده اليمنى.

وأمسكت «عشتارت» بيده اليسرى قائلة:

لماذا تريد أن تضرب رسل «يم»؟

وتضرب سفراء السيد «نهر».

يوجد تشوه فى النص، ولكن نستطيع قراءة بعض العبارات التى تذكر فيها «عشتارت» الإله «بعل» بضرورة احترام الرسل لأنهم لم يأتوا إلا لحمل الرسالة، ثم تهديد «بعل» للإله «يم».

الرسول...

إنه رسول... وبين كتفيه.

كلام سيده.

و.....

فارتجف الأمير «بعل» من شدة الغضب.

(وقال لأحد الرسولين): أنا أقوم إلى «يم» سيدك.

إلى سيدك «نهر».

...إن قصاص من «حدد».

وسوف تنحنى.

- الفصل الثالث:

هذا الفصل يصف المواجهة بين «بعل» و «يم»، وكيف أن «قصير حسيس»[1] صنع لبعل هراوة لكنها لم تكف لقتل «يم»، فما كان منه إلا صنع له هراوة أخرى أعانته على قتل «يم» بأن انتثرت جثته وتبعثرت.

(1) يذكر الأستاذ فراس السواح أن هناك إلهين حرفيين هما اللذان صنعا الهراوتين لبعل، والذى صنع الهراوة الأولى هو «كوثر» أو «قصير» والذى صنع الثانية هو «حاسيس». انظر - مغامرة العقل الأولى - ص 115.

ساشهر رماحى[1].

نعم، ساستلهما.

... وإذا وقفت فى وجه «يم» فسأقضى على راحته.

وإذا هاجم «يم» سأعقل... «نهر».

إلا أن بعلاً يكتشف أن أسلحته كانت صدئة.

السيوف صدئه هنا.

...وإلا فإن قوتى ستنهار على الأرض.

... وقدرتى تتمرغ فى التراب.

من فمه لا يخرج صراخ[2].

حتى ولا كلمة عالية من شفتيه.

وقد يصبح صوته مسموعاً.

وإن كان وشوشة تحت عرش الأمير «يم».

وهنا يشجعه الإله «قصير» ويصنع له أول هراوة.

فأجاب قصير حسيس:

إنى أقول لك أيها الأمير «بعل».

وأعلن لك يا ممتطى الغيوم.

إن هذا هو عدوك يا «بعل».

(1) الكلام لبعل.

(2) وذلك لأن «بعل» كان محتجزاً تحت عرش «يم» (المياه) فلا يكمن سماع صوته.

هذا هو عدوك وسوف تضربه.

هذا هو خصمك وسوف تذبحه.

ولسوف تقبض على الملك إلى الأبد.

وتبسط على الكل سيادتك.

وعندئذٍ صنع قصير هراوة.

وأعلن اسمها.

إن اسمك هو «يغرش».

وسيطرد «يغرش» يم.

يطرد «يم» عن عرشه.

يطرد «نهر» عن ملكه.

فهل يمكنك أن تفلت من يدى «بعل».

وكالقصر تندفع من بين أصابعه.

فتصيب منكبى الأمير «يم».

وهكذا انطلقت الهراوة من يد «بعل».

كالصقر انطلقت من بين أصابعه.

وأصابت الأمير «يم» فى الكتف.

فى المنتصف، بين ذراعى السيد «نهر».

ولكن «يم» كان قوياً:

فلم يهن ولم يقهر.

ولم تضعف مفاصله.

ولم يتغير وجهه.

وهنا يقوم «قصير» بصنع هراوة أخرى لبعل، حيث أن الأولى لم تكن كافية للقضاء على «يم».

وعندئذٍ صنع «قصير» هراوة أخرى.

وأعلن عن اسمها.

إن اسمك سيكون «أيمر».

و «أيمر» سيطرد «يم».

سيطرد «يم» من على عرشه.

سيطرده من على كرسى سيادته.

هل لك أن تنطلقى من يد «بعل».

كالصقر من بين أصابعه.

اضربى رأس الأمير «يم».

ولتكن اصابتك فى المنتصف بين العينين.

حتى يسقط «يم».

يسقط على الأرض.

عندئذٍ انطلقت الهراوة من يد «بعل».

كالصقر من بين أصابعه.

وضربت رأس الأمير «يم».

فى المنتصف بين عينى السيد «نهر».

فسقط «يم».

سقط على الأرض.

وارتخت مفاصله.

وتغير وجهه

فجر «بعل» «يم» ومزقه.

قضى على السيد «نهر».

وعندئذٍ نادت «عشتارت» «بعل» باسمه قائلة:

بعثره يا ممتطى الغيوم.

وسيصبح الأمير «يم» أسيرنا.

سيصبح السيد «نهر» أسيرنا.

واخرج....

فبعثره القدير «بعل».

و....

نعم، لقد مات «يم».

نعم، وسيسود «بعل».

وبعد، يمكن أن نعطى تفسيراً لهذه الأسطورة الأوغاريتية بأن «بعل» حامى البشر، له الحق فى الدفاع عن شواطئ أوغاريت ضد هجمات البحر «يم» التى تُحدث من وقت لآخر بعض الأضرار، ومن نحو آخر هى

حـامـيــة الملاحين. وهـناك من يـرى أن إله الخــصب «بعـل» لعب فـى هذه الأسطـورة نفس الدور الـذى لعـبــه «مــردوخ» فى أسـطورة الخـلق البــابليــة «الإنيـومـا إيليش» فى قـهـر المياه الأولـى «تعـامـة»، وأن الميـاه البـدئيـة هنا يمثلها الإله «يم» ابن «إيل»[1].



(1) قارن: رينيه لابات - ص 428، ومعامرة العقل الأولى - ص 112.

الفصل الخامس

نظرية خلق الكون في التوراة

الفصل الخامس

نظرية خلق الكون فى التوراة

جاءت نظرية نشأة الكون التوراتية فى الإصحاحين الأول والثانى من سفر التكوين، وهو أول أسفار التوراة، ولنعرض الآن للنص التوراتى على أن نعقبه بتعليق.

الإصحاح الأول:

فى البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغَمْر ظلمة وروح الله يَرِفُّ على وجه المياه. وقال الله:« ليكن نور» فكان نور. ورأى الله النَور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النورنهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: «ليكن جَلَد فى وسط المياه. وليكن فاصلاً بين مياه ومياه». فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء. وكن مساءٌ وكان صباح يوماً ثانياً.

وقال الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة». وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً.

ورأى الله ذلك انه حسن. وقال الله: «لتنبت الأرض عشباً وبَقْلاً يبرز برزاً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه برزه فيه على الأرض». وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبرز برزاً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً برزه فيه كجنسه. ورأى الله ذلك انه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله: «لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون الآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً فى جلد السماء لتنير على الأرض» وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين(1). النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك انه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله: «لتَفِضِ المياه زحافات ذات نفس حية وليطر فوق الأرض على وجه جلد السماء». فخلق التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه. ورأى الله ذلك انه حسن. وباركها الله قائلاً: «اثمرى واكثرى واملأى المياه فى البحار. وليكثر الطير على لأرض». وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله :« لتُخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش ارض كأجناسها» وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورى الله ذلك انه حسن، وقال الله : «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض».

(1) الشمس والقمر.

فـخلق الله الإنسـان على صـورته. على صـورة اللهخلقـه. ذكـراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم:« أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض».

وقال الله: «إنى قد أعطيتكم كل بقل يبـرز بزراً على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبرز بزراً لكم يكون طعاماً، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً» وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

الإصحاح الثانى:

فأُكْمِلَتِ السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل. فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً.

هذه مبادئ السموات والأرض حين خُلقت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات كل شجر البَرِّيَّة لم يكن بعد فى الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حياً. وغرس الرب الإله جنة فى عَدْن شرقاً. ووضع هناك آدم الذى جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.

وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس: اسم الواحد فِيشُون، وهو المحيط بجميع أرض الحَوِيلَة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المُقْل وحجر الجَزْع واسم النهر الثانى جِيحُون، وهو المحيط بجميع أرض كُوش. واسم النهر الثالث حِدَّاقِل، وهو الجارى شرقى أشور، والنهر الرابع الفرات.

وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: «من جميع شجر الجنة تأكل كلأ وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت».

وقال الرب الإله: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له مُعيناً نظيره» وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيورالسماء وجميع حيوانات البرية. وأما نفسه فلم يجد معيناً نظيره. فأوقع الرب الإله سُباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم.

فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى. هذه تُدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخِذَت» لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

تعليق على النص:

لسننا الآن بصدد إجراء مقارنة بين النص التوراتى وسائر النصوص الأسطورية السابق عرضها، فهذه المقارنة سيكون موضعها الفصل الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وكل ما سنفعله هنا هو مجرد تعليق على النص التوراتى لتغدو الصورة واضحة بشكل أكبر مما يسهل علينا إجراء المقارنات فى حينه.

القارئ للنص التوراتى يجد فيه - وبلا عناء - تناقضاً واضحاً، فبداية النص تقول: «**فى البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية**». ولكن مع الاستمرار فى قراءة النص نجد البداية الحقيقية التى سبقت عملية الخلق: «**وروح الله يرف على وجه المياه**». إذن البداية كانت المياه التى خلق منها كل شىء كما سنرى.

وبعد ذلك يخبرنا النص أن الله خلق فى اليوم الأول النور، وفصل بين النور والظلمة، فدعا النور نهاراً والظلمة ليلاً، وعلى ذلك فإن الليل والنهار قد خلقا قبل السماء والأرض، وفى اليوم الثانى فصل الله المياه إلى قسمين: «**وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء**».

وخلق الله الأرض فى اليوم الثالث، وذلك بأن تجمعت المياه التى تحت السماء: «**وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه بحاراً**» وبعد ذلك تم خلق العشب والشجر.

وفى اليوم الرابع قام الله بخلق الشمس والقمر والنجوم: **«فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض».**

وفى اليوم الخامس خلق الله الحيوان والطير: **«فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه»**

وفى اليوم السادس خلق الله البشر، وهنا أيضاً نجد تناقضاً واضحاً بين النصوص، ففى الإصحاح الأول نجد أن الله قد خلق البشر دفعة واحدة: **«فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثروا ..»** أما فى الإصحاح الثانى، فقد خلق الله آدم، ثم خلق حواء من ضلعه، أى تم خلق زوجين ولم يخلق البشر جملة: **«وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار أدم نفساً حية». و«فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم».**

ومما يرفضه وجدان المؤمن فى هذه النصوص أن الله سبحانه وتعالى - طبقاً للنصوص - قد خلق آدم على صورته أى على صورة الله، وكذلك استراحة الله سبحانه وتعالى فى اليوم السابع بعد أن أتم عملية الخلق.



الفصل السادس

نظرية خلق الكون في القرآن

الفصل السادس
نظرية خلق الكون فى القرآن

ونأتى الآن لنظرية نشأة الكون القرآنية، تلك النظرية التى جاءنا بها القرآن الكريم آخر الكتب الموحى بها من الله العزيز الحكيم، كتاب لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها لنا إعمالاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(1)، وقد جاءت النظرية القرآنية فيما يخص عملية الخلق سهلة واضحة لا يشوبها لبس ولا غموض، حتى أن القارئ لآيات الله عز وجل يستطيع فهمها وتدبرها دون أى عائق. ونقطة الانطلاق هى البداية.

البداية:

العرش والماء والهواء.

الله سبحانه وتعالى هو الأول بلا بداية، هو الآخر بلا نهاية، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، هو الخالق البارئ المصوّر، ويصف لنا الله سبحانه وتعالى الحالة قبل عملية الخلق فيقول: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(2).

(1) سورة النحل : 89.

(2) سورة هود: 7.

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم ما أنفق الله منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يده. وقال: عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان»(1).

وعن عمران بن حصين قال: إنى عند النبى ﷺ إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال: «أقبلوا البشرى يابنى تميم» قالوا بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن فقل: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم تقبلها بنو تميم» قالوا: «قبلنا جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان». قال: «كان الله ولم يكن شىء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء». ثم أتانى رجل فقال: ياعمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم(2).

وروى الإمام أحمد عن أبى رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنفق العقيلى قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه. قال: «كان فى عماء ماتحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق العرش بعد ذلك»(3).

والعماء بالفتح والمد: السحاب، وقال أبو عبيد: لا يُدرى كيف كان ذلك العماء. وقيل: هو كل أمر لا تدركه عقول بنى آدم، ولا يبلغ كنهه الوصف والفِطَن(4).

(1) صحيح البخارى - كتاب التوحيد.
(2) السابق.
(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - تفسير الآية 7 من سورة هود.
(4) الجزرى - النهاية فى غريب الأثر - المكتبة العلمية - بيروت 1979. جـ 3 - ص 304.

وجاء فى تفسير القرطبى لقوله تعالى:﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء. قال كعب: خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وان كان ساكناً، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله عز وجل:﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فقال: على أى شىء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

الكرسى:

قال أبو ذر: سألت رسول الله ﷺ أى آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم؟ فقال: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم». وقال ابن عباس: أشرف آية فى القرآن «الكرسى». ورد بعض العلماء هذا الشرف لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمر وظاهر ثمانى عشرة مرة[1].

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[2].

وعن ابن مسعود قال: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام وبين الكرسى وبين العرش

---

(1) تفسير القرطبى للآية 255 من سورة البقرة.

(2) سورة البقرة : 255.

مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش يعلم ما أنتم فيه وعليه[1].

وقال ابن عطية: فى قول أبى موسى: الكرسى موضع القدمين. يريد هو من عرش الرحمن كموضع القدمين من أسرة الملوك، فهو مخلوق عظيم بين يدى العرش نسبته إليه كنسبة الكرسى إلى سرير الملك[2].

وقال ﷺ مخبراً أبا ذر الغفارى: يا أبا ذر، ما السموات والأرض مع الكرسى إلا بمنزلة حلقة ملقاة فى أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة. وقال مجاهد ما السموات والأرض فى الكرسى إلا بمنزلة حلقة ملقاة فى أرض فلاة[3].

القلم واللوح المحفوظ

عن ابن عباس قال: إن أول شىء خلق ربى عز وجل القلم، ثم قال له اكتب فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة[4].

وعن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[5]. يقول أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شىء خلقه الله القلم ثم خلق النون وهى الدواة ثم قال له: «اكتب» قال وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أثر أو أجل. فكتب ذلك إلى يوم القيامة.

(1) تفسير القرطبى للآية 255 من سورة البقرة.
(2) السابق
(3) السابق.
(4) تفسير ابن كثير للآية الأولى من سورة القلم.
(5) سورة القلم 1.

وعن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: «اكتب» فقال: وما أكتب؟ قال: «علمى فى خلقى إلى يوم القيامة»[1].

ومن جماع ما سبق نستنتج - وهو ما عليه جمهور العلماء - أن العرش والماء والهواء خلقوا أولاً، ثم القلم، ثم اللوح المحفوظ.

---

(1) ابن حجر العسقلانى - فتح البارى - جـ 6 - ص 290.

خلق السموات والأرض

إن الباحث فى الايات القرآنية فيما يخص قصة خلق السموات والأرض عليه أن يتوخى الحذر، حتى لا يقع فى شرك الوهم بتناقض الآيات القرآنية بالنسبة لذلك الحدث الجلل والذى تحدثت عنه نصوص قرآنية كثيرة. ينبغى الجمع بينها حتى تتضح الصورة الحقيقية دون لبس أو تشويه، لذا نجد أنه لزاماً علينا أن نبدأ أولاً بإزالة ما قد يطرأ إلى الذهن من أمور لا تنتج إلا بالقراءة المتسرعة غير المتأنية لنصوص القرآن لكريم. وعليه سنبدأ أولاً بالتعرض لنقطتين فى غاية الأهمية، الأولى تخص خلق الأرض والسماء أيهما تقدم، والثانية خاصة بعدد أيام خلق الأرض والسماء[1] وسنعرض لكلتا النقطتين على التوالى.

خلق الأرض والسماء أيهما تقدم:

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

---

(1) حول هذا الموضوع انظر كتابنا: إزهاق الباطل (الرد على شبهات القمص زكريا بطرس) - مكتبة النافذة - القاهرة 2009 - ص 69، وما بعدها.

(2) الآية : 29.

ويقـول جل شـأنه فى سـورة فـصلت: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [1].

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [2].

وبقراءة متدبرة إلى النصوص الثلاثة السابقة نجد أنه لا تعارض ولا تناقض، ففى النص الأول يقول تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ ﴾ ، وفى النص الثانى يقول جل شأنه: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ﴾، وفى الثالث يقول عز من قائل:﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ والدحو (يعنى البسط) غير الخلق، فخلق الأرض كان قبل خلق السماء، ولكن دحوها كان بعد خلق السماء.

فالله سبحانه وتعالى بدأ خلق الأرض فى يومين غير مدحوة ثم خلق السماء فسواها فى يومين ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسى وغيرها فى يومين، فتلك أربعة أيام للأرض[3].

عدد أيام خلق الأرض والسماء:

وفيما يخص عدد الأيام التى خلق الله سبحانه وتعالى فيها السموات والأرض، فقد أخبرنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع أن الله تعالى

---

(1) الايات : 9 - 11.

(2) آيات : 27 - 30.

(3) ابن حجر العسقلانى - فتح البارى - جـ 8 - ص 55، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى - جـ 3- ص 81.

جلت قدرته قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام، نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1]، ومن يقرأ القرآن بغير تدبر قد يتوهم أن هناك تعارضاً بين هذه الآيات التى تقول بخلق السموات والأرض فى ستة أيام وبين آيات سورة فصلت حيث يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [2].

ومن يتوهم التناقض بين ايات سورة فصلت وبين سابقتها يقول: إن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض فى يومين، وأقواتها فى أربعة أيام، والسماء فى يومين، فيكون المجموع ثمانية أيام مع أن المتواتر أن خلق السموات والأرض كان فى ستة أيام.

والرد على هذا فى غاية اليسر؛ فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ واضح أن خلق الأرض فى يومين، وقوله جل شأنه: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ - أى جعلها مباركة قبالة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها: وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس وهذا أيضاً تم

(1) الأعراف آية 54، ويونس آية 3.
(2) فصلت : 9 - 12.

فى يومين، وهما مع اليومين السابقين أربعة أيام[1]. ومثال ذلك قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام، وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً أى فى تمتة خمسة عشر يوماً[2]،فتكون المسافة من بغداد إلى الكوفة خمسة أيام فقط، وهذا مشهور فى لغة العرب.

وعلى ذلك يكون خلق الأرض وجعل الرواسى من فوقها ومباركتها وتقدير أقواتها، كل ذلك تم فى أربعة أيام، وخلق السماء فى يومين، فتكون ستة أيام.

مراحل خلق الأرض والسماء:

أوضحت لنا آيات سورة فصلت مراحل خلق الأرض والسماء، وقبل أن نتعرض لهذه الآيات الكريمات يجب أن نوضح نقطة هامة، وهى أصل الخلق.

الماء أصل المخلوقات:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3]، وقد روى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: يا نبى ا لله إذا رأيتك قرت عينى وطابت نفسى فاخبرنا عن كل شىء قال : «كل شىء خلق من ماء»[4]. وقال السدى فى تفسيره: عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة تفسيراً لقول الله

---

(1) تفسير ابن كثير للآيات 9 - 12 من سورة فصلت.

(2) تفسير القرطبى للآيات السابقة.

(3) من الآية 30 من سورة الأنبياء.

(4) تفسير ابن كثير للآية 30 من سورة الأنبياء.

عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(1).

«إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضين فى «يومين»(2).

وعلى ذلك، ومن جماع النصوص السابق عرضها من القرآن الكريم والسنة الشريفة، يتضح لنا بجلاء أن الماء هو أصل الخلق، سواء أكان هذا الخلق حياً أو جماداً.

نأتى بعد ذلك لمراحل خلق الأرض والسماء، والتى فصلها الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (3).

وهذا تفصيل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾(4).

---

(1) سورة البقرة : 29.
(2) تفسير ابن كثير للاية السابقة.
(3) سورة فصلت : 9 - 12.
(4) سورة الأعراف: 24، ويونس : 3.

وآيات سورة فصلت فيها تفصيل ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾(1).

وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾- يعنى يوم الأحد ويوم الإثنين و ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا ﴾ - أى جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس - ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ - وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، وهذه المرحلة تمت يومى الثلاثاء والأربعاء فهما - كما أسلفنا - مع اليومين السابقين أربعة أيام ولهذا قال: ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾- أى لمن أراد السؤال عن ذلك (2).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ - وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ - أى استجيبا لأمرى وانفعلا لفعلى طائعتين أو مكرهتين(3).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ - أى ورتب مقرراً فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ - وهى الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض:

---

(1) البقرة: 29.

(2) تفسير ابن كثير للآيات 9 - 2 من سورة فصلت.

(3) السابق.

﴿وحفظًا﴾ - أى حرساً من الشياطين التى تستمع إلى الملأ الأعلى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ - أى العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم[1].

فصل السماء عن الأرض:

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن هذا الحدث فيقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

ويفهم من هذا أن الأرض والسماء كانتا رتقاً أى كان الجميع متصلاً ببعضه البعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق (أى شق) هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض.

وبعد ذلك فتق الله سبحانه وتعالى الأرض كما ذكرنا من حديث ابن عباس وابن مسعود: «ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضين فى يومين».

والأراضى السبع هى القارات السبع، ولو أمسكنا بخريطة وقمنا بفصل مواضع اليابسة ، ثم قربناها من بعضها البعض سنجد أن هذه المواضع ستتلاحم مكونة كتلة واحدة، وهى صورة الأرض قبل الفتق.

---

(1) السابق.

(2) سورة الأنبياء: 30.

خلق الليل والنهار:

دائماً ما يرتبط بالذهن خلق الليل والنهار مع خلق الشمس والقمر، ولعل هذا الارتباط قد جاء إلينا من خلال مراقبتنا لدورة الليل والنهار اليومية وارتباطها - ظاهرياً - بالشمس والقمر، ولكن بإمعان النظر فى النصوص القرآنية سنجد تغايراً واضحاً بين الليل والنهار من ناحيةوالشمس والقمر من ناحية أخرى.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (1).

ويقول جل شأنه: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (2).

وواضح من الايات الكريمات بصورة لا تدع مجالاً للشك أن الليل والنهار قد خلقا بعد رفع السماء، ولم تذكر خلقاً للشمس أو القمر، وهذا إن دل إنما يدل على أن آيتى الليل والنهار مستقلتين تمام الاستقلال عن آيتى الشمس والقمر، وأنهما فى خلقهما - أى الليل والنهار - قد سبقا خلق الشمس والقمر.

---

(1) سورة الأنبياء : 30 - 33.

(2) سورة الناتزعات: 27 - 31.

وقد سئل ابن عباس الليل كان قبل أو النهار فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة، ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار[1].

خلق الجبال:

يقول الله جل شأنه فى سورة فصلت: ﴿ وجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾[2].

والرواسى يعنى الجبال، وقال وهب: لما خلق الله لأرض مادت على وجه الماء فقال لجبريل: «ثبتها يا جبريل» فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يارب أنت أعلم لقد غلبت فيها. فثبتها بالجبال وأرساها[3].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[4].

والنصوص القرآنية فى هذا كثير[5] ومن إجمالى هذه الآيات نعلم أن وظيفة الجبال هى إرساء الأرض، وأن هذه الجبال خلقها مغايراً لخلق الأرض، لأن الله خلقها ثم ألقاها فى الأرض والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

---

(1) تفسير ابن كثير للآية 30 من سورة الأنبياء.
(2) آية 10.
(3) تفسير ابن كثير للآية 10 من سورة فصلت.
(4) من الآية 10 من سورة لقمان.
(5) من هذه الآيات: الرعد: 3، والحجر: 14، والنحل:31 ، والنمل: 61، وفصلت: 10، و ق: 7، والمرسلات: 27.

خلق الإنسان

فصل القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان تفصيلاً ولم يخف علينا أى مرحلة من مراحل خلقه، وقد أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن أطوار الإنسان منذ خلقه حتى موته، فيقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾[1].

ويكرر الله سبحانه وتعالى نفس المشهد السابق فيقول جل شأنه فى الاية 67 من سورة غافر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وبذلك يعلمنا الله عز وجل أن أصل الإنسان من تراب، وقد صرح القرآن الكريم بذلك فى ستة مواضع[2]. ويقول جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي

(1) من الآية: 5.

(2) آل عمران: 59، الكهف: 37، والحج: 5، الروم: 20، فاطر: 11، غافر: 67.

خلق مِنَ الْمَاءِ بَشَراً ﴾[1]. وعلى هذا فالإنسان خلق من ماء، وهذا لا يناقض خلقه من تراب، فالله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [2]،والإنسان كائن حى، وبالتالى فلابد أن يكون خلق من الماء،هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فلو وضع الماء على التراب لكان الطين، إذن الإنسان خلق من (تراب + ماء) وهو الطين، وهو ما أخبرنا به سبحانه وتعالى فى سبعة مواضع[3] نذكر منها قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ﴾[4]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[5].

وهذا الطين حتى يكون صالحاً للتشكيل يجب أن يكون على درجة ما من اللزوجة، لذا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[6]، والطين اللازب هو الجيد الذى يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد[7]، والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق: هو الذى لصق بعضه

---

(1) الفرقان : 54.
(2) الأنبياء : 30.
(3) الأنعام: 2، الأعراف: 12، المؤمنون: 12، السجدة: 7، الصافات: 11، ص : 71، ص : 76.
(4) السجدة: 7.
(5) المؤمنون: 12.
(6) الصافات: 11.
(7) تفسير ابن كثير للآية: 11 من سورة الصافات.

ببعض، واللازق: هو الذى يلتزق بما أصابه. وقال ابن جبير: لازب أى جيد حر يلصق باليد[1].

وبعد ذلك يخبرنا الحق سبحانه بمرحلة جديدة من مراحل خلق الإنسان، فيقول جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [2]- وقد جاء ذكر خلق الإنسان من الحمأ المسنون موضعين آخرين خلاف هذا الموضع [3] والمواضع الثلاث بسورة الحجر.

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى فى الاية السابقة، أن خلق آدم عليه السلام كان من صلصال من حمأ مسنون، والصلصال هو الطين اليابس الذى إذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا. قال ابن عباس: هو الطين الحر الطين الذى إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع، والحمأ: الطين المنتن والمسنون: هو المتغير. ومعنى ذلك أن الطين ترك حتى انتن وتغيرت رائحته ولونه[4].

وبعد ذلك يصبح هذا الصلصال كالفخار، كما يقول رب العزة: ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[5]، وهنا شبهه الله بالفخار الذى طبخ، وجدير بالذكر أن هذه هى الاية الوحيدة التى شبه فيها الله سبحانه وتعالى الصلصال الذى خلق منه الإنسان بأنه كالفخار، وبل الآية الوحيدة التى ذكرت بها كلمة «فخار».

---

(1) تفسير القرطبى للآية السابقة.

(2) الحجر: 26.

(3) الحجر: 28 ,33.

(4) انظر تفسير البغوى للآية : 26 من سورة الحجر.

(5) الرحمن: 14.

وبعد ذلك تأتى المرحلة الأخيرة لخلق آدم، وهى نفخ الله سبحانه وتعالى من روحه فى آدم عليه السلام، وقد جاءت هذه الحقيقة القرآنية فى ثلاثة مواضع، يقول جل شأنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2].

ويقول عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3].

والنفخ إجراء الريح فى الشىء والريح هنا - فى أقوال المفسرين - جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق فالروح خلق من خلقه - سبحانه وتعالى - أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريما[4].

ويروى لنا السدى قصة خلق ادم عليه السلام فيقول:

فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع

---

(1) الحجر: 28 - 29.
(2) السجدة: 7 - 9.
(3) ص: 71 - 72.
(4) تفسير القرطبى للآية 29 من سورة الحجر.

وقال كما قال جبريل. فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بك أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو ادم مختلفين. ولذلك سمى آدم ، لأنه أخذ من أديم الأرض، فصعد به فقال الله تعالى: «أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك» فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها. فقال: «أنت تصلح لقبض أرواح ولده».

فبل التراب حتى عاد طيناً لازباً (اللازب - كما ذكرنا - هو الذى يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن، فذلك حين يقول: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ - قال منتن، ثم قال للملائكة: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص : 71 - 72).

فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه. يقول: «أتتكبر عما خلقت بيدى ولم أتكبر أنا عنه.

فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد - كما يصوت الفخار تكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: 14) ويقول: لأمر ما خُلِقت.

ودخل من فمه وخرج من دبره، فقال إبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكته، ويقال: إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذ الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضِّل

عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون، فقالوا نطيع أمر ربنا. فأسر إبليس فى نفسه لئن فُضِّل على لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ - فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس. فقال له الملائكة: قل الحمد لله فقال: الحمد لله فقال الله له: رحمك ربك. فلما دخل الروح فى عينه نظر إلى ثمار الجنة. فلمادخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة حين يقول: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ - (الأنبياء: 37) فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين[1].

علم آدم:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(2).

و«علم» بمعنى عرف، وهو علم لدنى من لدن الله سبحانه وتعالى، وأنا

---

(1) رواها السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود. انظر تفسير القرطبى للآية 31 من سورة البقرة.

(2) سورة البقرة: 30 - 33.

لست مع من يقولون أن هذا العلم كان بواسطة جبريل عليه السلام، وهذا واضح من سياق النص القرآنى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وعلَّم آدم﴾ ولم يذكر أية واسطة لهذا التعليم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن الله سبحانه وتعالى - قد عرض الأسماء التى علمها لآدم على الملائكة فلم يعرفوها وجبريل عليه السلام من الملائكة، ولم يستثنه النص، وبالتالى لم يكن يعلم بها، فلو كان العلم قد تم بواسطته لعرف جبريل عليه السلام هذه الأسماء.

والأسماء بمعنى العبارات، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كقولك: زيد قائم والأسد شجاع. وقد يراد به التسمية ذاتها كقولك: أسد ثلاثة أحرف(1).

واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير: علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وكذلك قال ابن عباس: علمه أسماء كل شىء حتى الجفنة والمحلب. وروى شيبان عن قتادة: علم آدم من الأسماء، أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة وسمى كل شىء باسمه وأنحى منفعة كل شىء إلى جنسه. قال النحاس: وهذا أحسن ما روى فى هذا، والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها هذا كذا وهو يصلح لكذا(2).

---

(1) تفسير القرطبى للآية 31 من سورة البقرة.

(2) السابق.

خلق حواء:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[1] ويقول جل شأنه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2]. ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3].

والمقصود بالنفس هنا هو آدم عليه السلام، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ - ذلك لأن لفظ النفس يؤنث وإن عنى به مذكر، ويجوز فى الكلام: من نفس واحد[4].

وقد روى السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: «أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحيشاً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها: ما أنت؟ قال: امرأة. قال: ولما خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولما حواء؟ قال: إنها خلقت من شىء حى(5).

وزاد القرطبى فى تفسيره على الخبر السابق: «أنهم - أى الملائكة - قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم. وقالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت"

(1) من الآية 21 من سورة الروم.
(2) من الاية 6 من سورة الزمر.
(3) من الاية 189 من سورة الأعراف.
(4) تفسير القرطبى للاية 1 من سورة النساء.
(5) تفسير ابن كثير للآية 35 من سورة البقرة.

لا. وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه. لذا قالوا: لو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حواء[1].

آدم يسكن الجنة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[2].
والجنة المقصودة هنا هى جنة الخلد، ولن نلتفت لما ذهب إليه البعض بأن هذه الجنة هى جنة بأرض عدن. ذلك أن الله سبحانه وتعالى عرف الجنة بالألف واللام. ومن قال: أسأل الله الجنة لم يفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد[3].

والدليل القرآنى على أن الجنة هى جنة الخلد يظهر فى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[4].
فالهبوط لا يتصور إلا أن يكون من السماء. وقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ - وإذا كانت الجنة فى الأساس هى جنة أرضية لما كانت هناك فائدة من هذا القول، ولما كانت الأرض أصبحت مستقراً إلا إذا كانت جنة الخلد فى السماء هى المقام الأول لآدم.

الخطيئة والخروج من الجنة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا

(1) تفسير القرطبى للآية السابقة.
(2) من الآية 35 من سورة البقرة.
(3) تفسير القرطبى للآية السابقة.
(4) من الاية 36 من سورة البقرة.

الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1].

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، أكرم الله آدم بأن أدخله الجنة هو وزوجته يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغداً أى هنيئاً واسعاً طيباً، وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ - فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. والنهى جاء مشدداً فمجرد الاقتراب فى حد ذاته محظور وذلك لأن الاقتراب قد يكون خطوة أولى للأكل منها. ولا يهمنا - نوع الشجرة التى حرم الله سبحان وتعالى على آدم، فهذا مما لا فائدة منه، ولو كان به خير لأخبرنا به رب العزة.

ولكن الشيطان ما كان ليتركهما ينعمان فى الجنة بعد أن خرج منها مطروداً: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[2].

وعلى ما يبدو أن إبليس لم يكن يعلم أن آدم بهذه الخطيئة سيكون جزاءه هو الخروج من الجنة، فقد كان جل هدفه هو أن يظهر لهما سوآتهما أى عوراتهما، وسمى الفرج عورة لأنه يسوء صاحبه.

وقد اتبع إبليس مع آدم وحواء قانونه الشيطانى وهو الوصول إلى هدفه عن طريق مخطط ينفذه على مراحل وخطوات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(1) البقرة: 35 - 36.

(2) الأعراف: 20 - 21.

لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(1).

وقد بدأ الشيطان معهما بالوسوسة، وهى الصوت الخفى، وذلك حتى يثير الفكرة فى ذهنهما، وبعد ذلك انتقل إلى الخطوة الثانية وهى القول: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ والخطوة الثالثة تمثلت فى القسم: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ولما كان آدم وحواء على فطرتهما وبرائتهما، فلم يعلما بهذه الأساليب الخبيثة واعتقدا أن الشيطان يُقسم لهما صدقاً، فاستجابا وكانت النتيجة.

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(2).

وبذلك خسر آدم وخسرت حواء ما كانا فيه من نعيم، وهبط الجميع إلى الأرض: آدم، وحواء، وإبليس ليبدأوا رحلة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى، رحلة معلوم فيها نهاية إبليس ومجهول فيها مصير الإنسان، هل إلى الجنة ونعيمها أم إلى النار وعذابها؟

(1) من الآية: 21 سورة النور.

(2) الأعراف: 22 - 24.

مصير الإنسان لو لم يرتكب آدم الخطيئة؟

كثيراً ما يثور فى الذهن هذا التساؤل: ماذا لو لم يرتكب آدم الخطيئة؟ هل كان البشر سيعيشون فى الجنة إلى أبد الأبدين؟ أم أن الوضع خلاف ذلك؟

علينا أن نتتبع القصة مرة أخرى، ففى البداية قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]. وعلى ذلك نجد أنه سبحانه وتعالى إنما خلق الإنسان لإعمار الأرض، ولعبادته سبحانه وتعالى بإتيان أوامره وباجتناب نواهيه.

وبعد ذلك هل سيخوض آدم تجربة النزول إلى الأرض بلا علم بالطبع لا ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2]. فهذا العلم هو الذى سيمكن آدم من مجابهة الأخطار التى سيواجهها فى هذا العالم الغريب عليه، فهو مخلوق جديد على فطرته، ليس لديه من الأسلحة ما يعينه على خوض هذه التجربة، لذا كان لابد من العلم.

ثم يجىء أمـــر الله لأدم بأن يسكن الجنة: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[3]. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ وفى ذلك تنبيه على الخروج، فالسكنى تكون لمدة محددة ثم تنقطع، فدخولهما الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة، ولو كان الله سبحانه وتعالى قد أراد الإقامة الدائمة لأخبر بذلك، وعلى ذلك، فآدم عليه السلام كان يعلم أن إقامته

(1) من الاية 20 من سورة البقرة.
(2) من الآية 31 من سورة البقرة.
(3) من الآية 35 من سورة البقرة.

فى الجنة مؤقتة، وكيف لا؟ وقد علمه الله سبحانه وتعالى الأسماء، فكان يعرف المراد بكل لفظ. ولذلك نجد أن الجنة كجزاء أخروى لم يقرنها الله سبحانه وتعالى بالسكن، وإنما اقرنها بالخلود دليل على الإقامة الدائمة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(1).

والتساؤل الآن، مادام أن آدم مآله إلى الأرض، لماذا أسكنه الله الجنة؟

الإجابة غاية فى اليسر، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يعيش آدم بنفسه فى الجنة، ويتمتع بها، وكيف لا وهو أول إنسان خلق، وذلك كى يحثه على إتيان الخير واجتناب الشر، فهذا هو السبيل الوحيد للوصول إلى تلك الجنة مرة أخرى، وفى هذه المرة ستكون الإقامة دائمة غير مقيدة وقت.

وآخر تجربة وآخر علم تعلمه آدم قبل أن يبدأ رحلته التى خلق من أجلها، هو علمه تمام اليقين أن إبليس هو الذى أخرجه من الجنة بهذه الصورة، وأنه هو الذى سيغوى ذريته ليحول بينهم وبين جنة الخلد التى رآها أبوهم وأمهم رأى العين وعاشا فيها، وأكلا منها.

إذن قرار الهبوط من الجنة لم كن مفاجئاً لآدم عليه السلام، فهو كان يعلم علم اليقين أنه إنما خلق ليعمر الأرض، ولكن المفاجأة كانت فى خروجه بهذه الطريقة فور عصيانه أمر الله، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن باب التوبة مفتوح، وأن آدم نزل الأرض بعد أن محى الله

---

(1) من الاية 57 من سورة النساء.

سبحانه وتعالى خطيئته: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1]. - وبعد ذلك - يهبط الجميع إلى الأرض ليبدأ الناموس الإلهى، الثواب والعقاب، والصراع بين الإنسان والشيطان: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

نسأل الله تعالى أن يسهل لنا طريق الجنة ويباعد بيننا وبين النار، ونعوذ به من الشيطان الرجيم ومن خطواته التى منتهاها الخسران المبين.



---

(1) من الآية 37 من سورة البقرة.

(2) الأعراف: 24 - 27.

الفصل السابع

خلق الكون بين إلحاد الأسطورة

وتوحيد الدين السماوى

الفصل السابع
خلق الكون بين إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوى

التشابه بين النصوص الأسطورية والنصوص السماوية:

وبعد، سيجد القارئ لكل الموضوعات التى أسلفناها فى فصول الكتاب تشابهاً لا يمكن إنكاره - بين النص الأسطورى - فى مختلف الحضارات التى تعرضنا لها - وبين النص السماوى المتمثل فى التوراة والقرآن الكريم.

1 - مبدأ الخلق:

ولعل هذا التشابه أكثر ما يكون فى مسألة مبدأ الخلق، ففى الأساطير الفرعونية وجدنا أن أصل الخلق يتمثل فى المياه الأولى «نون»، وفى الأساطير السومرية عرفنا تلك المياه باسم «نمو»، وفى البابلية «تعامة» وفى السورية «يم».

والأمر لا يختلف كثيراً فى الكتب السماوية فنجد فى التوراة: «وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه»[1]، وقد أكد القرآن

(1) تكوين : 1 :2.

الكريم هذه الحقيقة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2].

2 - فصل السماء عن الأرض:

وبالنسبة لفصل السماء عن الأرض، نجد أن الإله «شو» (الجو أو الهواء) هو الذى فصل بين «نوت» (السماء) و«جب» (الأرض). وذلك وفقاً للفكر الأسطورى المصرى الفرعونى، وكذلك الأمر فى الأسطورة السومرية، نجد أن الهواء «إنليل» فصل بين السماء «آن» والأرض «كى». أما فى البابلية، فقد شق «مردوخ» «تعامة» - المياه الأولى - إلى نصفين، فرفع أحدهما فكانت السماء. وجعل من الأخرى الأرض.

وفى النص التوراتى نجد أن السماء والأرض كانتا جزءاً واحداً ففصل اللهسبحانه وتعالى بينهما: **«فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد.. ودعا الله الجلد سماء... وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة»**[3].

ويخبرنا الحق سبحانه وتعالى بعملية الفصل هذه فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(1) هود: 7.
(2) من الاية 30 من سورة الأنبياء.
(3) تكوين: 1 : 7 - 9.
(4) الأنبياء : 30.

3 - خلق الإنسان:

رأينا عند عرض الأساطير الفرعونية كيف أن الإله «خنوم» كان يشكل البشر بدولاب الفخرانى، وهذا يعنى أن البشر إنما خلقوا من طين، وفى الأساطير السومرية رأينا إن الإله «إنكى» خلق الإنسان من الصلصال.

وجاء فى النصوص التوراتية: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية»(1).

وجاء القرآن الكريم متفقاً مع حقيقة خلق الإنسان من تراب ومن طين ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾(2).

و ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾(3)، وقال جل شأنه: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾(4).

وعلى هذا، نجد أن هناك تشابهاً - من درجة ما - بين بعض النصوص الأسطورية والنصوص السماوية فيما يخص بعض مراحل الخلق، ولكن، ما هو سبب هذا التشابه؟ سنؤجل هذا الموضوع لنهاية هذا الفصل، ولكن بداية نقول، أنه من غير المقبول أن نفترض أن الدين السماوى قد أخذ عن الأسطورة، فإذن لماذا هو دين سماوى؟ وكذلك نرفض وبشدة إخضاع نصوص الدين السماوى لتتفق مع ما جاء بالنصوص الأسطورية أو الهرطقة العلمية، بحيث يتم تأويل النصوص بطريقة لا تحتملها لإثبات صحة فرضية علمية أو قصة أسطورية. قد يتعجب البعض من هذا

(1) تكوين: 2 :7.
(2) من الآية 67 من سورة غافر.
(3) المؤمنون: 12.
(4) الرحمن: 14.

القول، فهل يوجد فعلاً من يحاول القيام بهذا؟ الإجابة: نعم، وممن من علماء يدعون أنهم مسلمون، وجدناهم وقد اعتنقوا نظرية داروين فى النشؤ والارتقاء، ولم يدخروا جهداً فى إثباتها وتأكيدها بالنص القرآنى، لذا وجدنا أنه لزاماً علينا أن نعرض هذه الأقاويل التى لم ترتق حتى إلى درجة الأسطورة وإن شئت فقل خرافات، نقول أننا سنعرض لها ثم نقوم بالرد عليها، كى لا ترتبك لعقول.

ملخص نظرية داروين:

ملخص النظرية يكمن فى أن الإنسان كان فى بدء الأمر جرثومة، ثم أخذ يتطور حتى أصبح قرداً، وارتقى هذا القرد الهمجى حتى صار إنساناً.

يقول داروين: «من الغريب أن الإنسان مشيد على نفس الطراز أو النمط العام مثل الحيوانات الثدية الأخرى. فإن العظام الموجودة فى هيكله الظمى من الممكن مقارنتها مع العظام المناظرة الموجودة فى أى قرد، أو خفاش، أو فقمة. الأمر كذلك فيما يتعلق بعضلاته، وأعصابه وأوعيته الدموية، وأحشائه الداخلية، وكذلك المخ، وهو الأكثر أهمية فيما بين جميع الأعضاء الجسدية»[1].

ثم يعرض دراوين لآراء علماء التشريح الذين يعترفون بأن كل شق رئيسى، وكل ثنية رئيسية، فى المخ الخاص بالإنسان، له نظيره فى المخ الخاص «بالأورانج»[2]. والفروق الحقيقية الموجودة بين المخ الخاص

(1) تشارلس داروين - نشأة الإنسان (والانتقاء الجنسى) المجلد الأول - ترجمة وتقديم د. مجدى محمود المليجى - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة 2005- ص 91.

(2) اورانج إاو اورانج يوتان Orangutan ضرب من القردة غير المذيلة العليا.

بالإنسان، وتلك الأمخاخ الخاصة بالقرود العليا، هى فى منتهى الضآلة، ولا يجب أن يكون لدينا أى أوهام فيما يتعلق بهذا الموضوع. فإن الإنسان قريب جداً فى صفاته التشريحية وفى ذكائه من القرود الشبيهة بالإنسان، أكثر من تقارب تلك القرود من باقى الحيوانات الأخرى»[1].

وبعد ذلك يستمر دراوين فى إثبات فرضيته بأدلة أوهن من خيوط العنكبوت، فمثلاً الإنسان يصاب بعدوى من الحيوانات وهذا يؤكد المماثلة، وكذلك تشابه التكوين الجينى، وبعد الأجزاء الموجودة فى الحيوانات والتى لها أثر فى التكوين التشريحى للإنسان، وكل هذا أكد به داروين نظريته[2].

وفى النهاية يقول داروين: «حتى لو تمت الموافقة على أن الاختلافات الموجودة بين الإنسان وأكثر الحيوانات قرابة له، فى التركيب الجسمانى، على هذه الدرجة الكبيرة التى يصر عليها بعض علماء التاريخ الطبيعى، وبالرغم من أنه يجب علينا أن نقر بأن الاختلاف بينهم شاسع فى القدرة العقلية، فإن الحقائق التى تم تقديمها يبدو أنها تعلن، بأوضح طريقة - أن الإنسان قد انحدر عن أحد الأشكال الأقل فى المستوى، بالرغم من أن الحلقات الرابطة فيما بينهم لم يتم اكتشافها حتى الآن[3].

نقول لداروين - ومن على شاكلته - مادام أن «الاختلافات بين الإنسان والقرد كبيرة» و«الاختلاف شاسع فى القدرة العقلية» و«الحقائق التى تم

---

(1) السابق - ص 92.

(2) السابق - ص 92 - 122.

(3) السابق - ص 356.

تقديمها يبدو...» وكل هذه عباراتك السابقة، مادام الأمر كذلك، مادام الأمر مجرد «خرافات» و«تخيلات»، ما دام أنك تشعر - ومن معك - بحنين وشوق إلى «القرود»، وما دام أكبر طموحكم هو أن تكونوا قروداً، فلماذا كل هذا الضجيج؟!

إخضاع النص السماوى لوهم العلم وإلحاد الأسطورة:

هناك من المسلمين من زعموا أنهم مجددون[1] قاموا بلى أعناق نصوص القرآن كى تتفق مع أوهام نظرية داروين، وإلحاد النصوص الأسطورية، فانتهوا إلى عدة نتائج، فغايروا بين البشر وبين الإنسان، وبين آدم الإنسان وآدم الرسول، أى قالوا بوجود «آدمين» ، وقاموا بتأويل شجرة المعصية التى أكل منها آدم وحواء بطريقة تثير الشفقة. وسنعرض لأهم النتائج التى انتهوا إليها فى أبحاثهم الطويلة، ثم نقوم بالرد عليها.

1 - البشر:

وقصة ظهور البشر إلى الوجود - والتى رواها أولئك المجددون - غاية فى الغرابة، وكيف لا وقد جعلوا كتب داروين ورفاقه هى المرجع الأعلى لهم.

يقول هؤلاء المجددون[2]: قبل مئات الآلاف من السنين (قد تصل إلى عدة ملايين) وبعد أن تهيأ كوكب الأرض عبر مئات الملايين من السنين

---

(1) انظر على سبيل المثال كتابهم: بين ادمين (آدم الإنسان وآدم الرسول - قسم الدراسات والبحوث - جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية بالبحرين - نشر دار كيوان - دمشق - الطبعة الأولى - 2009

(2) المصدر السابق - ص 14 - 15 ، ص 34. وسوف ننقل ما قالوه مع بعض التصرف اليسير للاختصار.

لاستقبال الحياة النباتية ثم الحيوانية، حان دور خروج آخر كائن حيوانى معقد وهو «البشر»، فخرجت بداياتهم كما خرجت بدايات كل دابة كما قال القرآن واكدته الأساطير العربية واثبته العلم، بتكون شفراتها الجينية من أملاح الماء (البحر اللجى الأول) كخلايا أولى (كود برمجى، دى إن إيه D. N. A. ، وغلاف بروتينى واق، تماما كأقوى الفيروسات التى تبحث عن عائل مناسب تنشط فيه وتتقسم)، ثم علقت باليابسة لما تشكلت اليابسة عبر دورات الماء، حتى آن أوان تنشيطها، تماماً كالبذرة التى تحيى بعد موات (سبات) فى التربة والماء والظرف المناسب، فتغذت ونمت فى حاضنات الطين اللازب جنب المستنقعات النهرية، لتتشق الأرض الطينية بعد مدة تخليق عن كائنات بشرية كاملة، خرج البشر الأوائل رجالاً ونساءً بالغين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء: 1) وظل هذا الخروج والنسل الأرضى (النشأة من الأرض) يتوالى، حتى جاءت حقبة التناسل من الذكر والأنثى، فانتقل الخلق البشرى (النشأة) من طور نشأة الأرض إلى طور نشأة الأرحام: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (النجم: 32).

الرد:

بداية نقول: إن القرآن الكريم ليس فى حاجة لأن تؤكده أسطورة أو يثبته علم، فأى أسطورة قد تتفق مع القرآن فى بعض آياته، فهذا لعلة سنذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى.. وأما العلم، فما يقوله اليوم

فقد يثبت خطؤه غداً، لأن العلوم مبنية على الافتراض والظن. وقد سبق ورأينا كيف أن نظرية داروين - وبعباراته هو - مجرد ظنون لا ترقى إلى مستوى اليقين، ويبقى القرآن ثابتاً بلا تبديل أو تغيير.

أما خروج البشر من الأرض كالنبات، بلا تزاوج أو تناسل، فهذا قول خرافى لا يقبله عقل، إذ لو كان الأمر كذلك لبقى هذا البشر ملتصقاً بالأرض بلا حراك ليتغذى منها، ولن يستطيع أن يفارقها.

أما الاستشهاد بالآية الأولى من سورة النساء، فهو فى غير موضعه، فقد قال الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ - وكذلك ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ فما دام البشر يخرجون من الأرض كالنبات، فما فائدة خلق «الزوج»؟! وما فائدة الرجال والنساء والمغايرة بينهما مادام الجميع يخرجون من الأرض؟!

أما الآية 32 من سورة النجم فهى تؤكد النظرية القرآنية فى خلق الإنسان، فقد خلق - كما أسلفنا فى الفصل السابق - من تراب، ثم تناسل بعد ذلك، ولم يوجد أية مرحلة وسطى بين خلق البشر - كما فى مفهوم هؤلاء المجددين - وبين خلق الإنسان العاقل.

وإذا سلمنا مع هؤلاء المجددين، وهم مسلمون، بأن البشر غير الإنسان، وأن البشر همج، للزم هذا الوصف محمد ﷺ خير الأنام، وهو بعيد كل البعد عن هذا. أو ليس الله يقول فى كتابه الكريم، آمراً محمد ﷺ: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (من الآية 93 - سورة الإسراء) فما بال هؤلاء القوم، وما حدث لعقولهم.

2 - آدم الإنسان:

الإنسان - طبقاً لهذا الفكر - مختلف عن البشر، فهو البشر المنفوخ فيه الروح، والذى بدأ بزوغ أول جنسه بخلق آدم وحواء[1]. فكيف ظهر هذا الإنسان إلى الوجود؟

يقول المجددون: تسلل كائنان بشريان من الهمج اللاواعى داخل مغاور جبال السَّراة فى الجزيرة العربية مهد الإنسان الأول، واستُدرجا لدخول الجنة المحروسة بالملائكة «فرادى»، الذكر منهما دخل قبل الأنثى، فى زمن كان بداية تحول فلكى «كونى» له ارتباط بدورة الشمس فى المجرة، جو موبوء بمناخ قاس، متوافق مع آخر عصر جليدى الذى بدأ ليهلك فى طريقه هذا الجنس البشرى الهمجى السابق المنتشر والذى سيبيد بعضه بعضاً وتبيده الكواسر والوحوش ومكابدة الظروف. ضمن خطة إلهية تنفذها الطبيعة والقوى الربانية لاستبداله بالإنسان «الخليفة» بذريته الإنسانية، كما ينقى الزارع بيده ويستتبت أجود فسائله ويجتث اللاملائم، هذا العصر الذى بدأ قبل أكثر من خمسين ألف سنة تقريباً، وبدأ عمل تخليق الإنسان وتسويته وصَف جيناته، ثم لعله وضع فى حالة سبات، انتظاراً لقدوم الرب [2].

بعده بمدة استُدرجت الأنثى لدخول الجنة، أو سهلت الملائكة الصافّة المدبِّرة لدخولها، وشرعوا فى إعادة تخليقها وتحسينها وتعديل جيناتها بنفس الطين والتركيبة الجينية (من فاضل الطينة كما يقولون)، وجرى

---

(1) السابق - ص 35.

(2) السابق - ص 15.

عليها ما جرى عليه تماماً من طينته ومن شفرته ونسفه - ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ - (من الآية 1 من سورة النساء)، وكانت إبادة الظروف القاسية للهمج قائمة خارجاً.

فى اليوم الربانى - والكلام للمجددين - لتقدير المصائر، يوم القدر هبط الرب، الروح الأعظم، رب الملائكة آن وروحه **إنليل لدى السومريين**، ونفخ فى الكائن البشرى المعدل من روحه بكيفية لا نعرفها، فوجدت لأول مرة بدايات الإنسانية بولادة كائنين مثيلين للرب (آدم وحواء) كأطفال فى هذا العالم الواعى الجديد، وتم تولية الملائكة المدبرين على هذا الخلق الإنسانى الجديد.

ويستطردون: نوديت الجنود الروحانية من جن وملائكة مسئولة عن الأرض خارج المقر (الربانى) للانتظام فى مشروع إعداد وتأهيل هذا الكائن الجديد (ولى العهد) واحتضانه والقيام بمعونته وتعهده وتعليمه وخدمته (**وهو المسمى بالسجود لآدم**) فأبى فرع من الجند المختص بالنفس البشرية والنفوس الطبيعية، وأسلم إبليس مع قبيله وأتباعه (الجن) فجادل مسئوله، مسئول الطبيعة من المدبرين، وهو سيده ميكائيل الذى ينوب عن الرب حيالهم.

وميكائيل أى ميكا = محكا = محاكى ومثيل إيل، مثيل الرب، والذى نادى مجاميع الملائكة للسجود لآدم ليس الرب مباشرة بل المدبرون لأمر الرب وواسطة كلامه فى تلك المجاميع وأمرهم أمره وكلامهم كلامه،

بدليل كلمة (قلنا) بضمير الجمع المتكلم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (من الآية 34 من سورة البقرة) (1).

طُرد إبليس من الجنة بعد رفضه الخضوع والإذعان لأمر الرب بالانتظام ضمن التخطيط الجديد (أبى السجود) ، أى قبل قريب من خمسين ألف سنة.

الرد:

لا ندرى كيف فرَّق هؤلاء القوم بين الإنسان والبشر؟! أم هى مصطلحات شيطانية استعملت لنشر هذه الأباطيل، فهذه القصة التى يروونها ليست إلا دربا من خيال، ليس لها سند من عقل أو نقل، فهل آدم تسلل إلى الجنة أو قرب الجنة أم استدرج لها استدراجاً؟ ولماذا آدم؟ لم يذكروا لنا الصفات التى تمتع بها ادم ليختاره الله سبحانه وتعالى من بين البشر الهمج.

ونجدهم بعد ذلك يقولون: «**وبدأ عمل تخليق الإنسان وتسويته وصف جيناته**» أو ليس معنى هذا أن هذا الإنسان لم يكن له وجود أصلاً، أى كان عدماً، فأين أذن البشر الهمج الذى يتحدثون عنه، ثم يقولون: **لعله وضع فى حالة سبات**، إذن أقوالهم خيال فى خيال.

وبعد ذلك، ماذا صنع الملائكة بحواء، قالوا: **وشرعوا - اى الملائكة - فى إعادة تخليقها وتعديل جيناتها بنفس الطين والتركيبة الجينية**، واستدلوا على ذلك بقوله عز وجل: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (آية 1 سورة النساء).

(1) هذه الفقرة زكروها بالهامش بالمصدر السابق - ص 16.

فـأولاً، هل الذى يخلق الله أم الملائكة؟ هم يزعـمـون أنهم مـسلمـون، فليكن إذن، ألم يقل الله فى كتـابه العـزيز: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعـام : 102) وقـال سبحـانه وتعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر: 62) ، فكيف يجعلون الخلق للملائكة؟!

وثانيـاً: استدلوا على خلق حـواء من نفس طين ادم (من فضلة الطينة) بقـوله سـبحـانه: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ - أو ليس هذه هى نفس الاية التى استدلوا بها على خلق البشر الهمج الذين خرجوا من الأرض كالنبات ، فهـاهم يستدلون بهـا مـرة أخـرى للبرهنة على خلق آدم وحـواء من نفس الطينة ونفس الجينات، أى خلق الإنسـان العاقل، فهل الاية دليل على خلق البشر الهمج أم على خلق الإنسان العاقل؟!

نأتى بعـد ذلك للمصـيبة الكبـرى، فهم يقولون: **هبط روح الرب، الروح الأعظم ، رب الملائكة «آن» وروحـه «إنيليل» لدى السـومـريين.** أليس مـا يقولونه هذا تعدد للآلهة ، أليس هذا شركاً بالله سبحانه وتعالى، الواحد الأحد ، الفرد الصمد.

ثم قـامـوا بتـأويل السجـود لآدم كالتـالي: احـتضـانه (اى آدم) والقيـام بمعونتـه وتعهده وتعليمه وخدمته، ومعنى قولهم هذا أن السجود هنا ليس سجـوداً حقيقياً، وإنما مـعناه التعهد والتعليم، فمن أين لهم بهذا التأويل وقـد قـال تعـالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: 31)، ثم قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: 34). ومعنى هذا أن تعليم آدم شىء ، والسجود له شىء آخر، فالذى علم آدم هو الله وليس الملائكة كما يزعمون، بدليل عرض الله الاسماء على الملائكة فلم يعرفوها، فكيف يُعلم من لا يعلم أصلاً؟!

وإذا كان السجود بمعنى تعهد آدم وتعليمه لما كان إبليس ليرفض ذلك، بل كان سيفتخر على آدم بأنه هو الذى قام بتعليمه وتعهده، فيكون له عليه فضل، ولما كان السجود هنا سجوداً حقيقاً، فقد أبى إبليس واستكبر.

أما عن اسم ميكائيل، وذكرهم أنه يعنى مثيل الرب، فأولاً نقول أن ميكائيل يعنى «عبد الله» أو «عبيد الله»، وثانياً نعود وتذكرهم بأنهم مسلمون، ونذكرهم بقول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (من الآية 11 سورة الشورى) فكيف يدعون أحد الملائكة بأنه مثيل الله سبحانه وتعالى؟!

أما ادعاؤهم بأن الذى نادى بالسجود هم المدبرون لأمر الرب بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ نقول أن الله سبحانه وتعالى يستعمل ضمير الجمع للتعظيم كقوله: خلقنا، جعلنا، وسبق ورأينا أن الله هو الخالق ولا خالق معه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أو ليس القرآن الكريم هو خطاب الله لنا؟ فعندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ فهو الذى يكلمنا، وإذا اعتبرنا أن من قال هم المدبرون، لوجب علينا أن نسلم أن هذه الآية هى خطاب المدبرين إلينا وليست خطاب الله، وهذا مرفوض نقلاً وعقلاً.

ومن ناحية ثالثة يقول الحق سبحانه وتعالى فى نفس الواقعة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: 71 - 72) فهنا القول منسوب لله سبحانه وتعالى، وجاء بضمير المفرد وليس الجمع، وهذا يؤكد أن ضمير الجمع المتكلم كان للتفخيم.

3 - شجرة المعصية:

ما زلنا مع المجددين فى رحلة خيالهم الخرافية حيث يقولون[1]: بعد مدة أغوى إبليس المطرود والذى حسد آدم على مقامه، بعض بقايا البشر الهمج بالصعود (إلى الجنة)، لاسيما أنثى منهم، بإيحاءات نفسية (فى المجرى الصافى لغدير من الغدران المترقرقة من مغارة الجنة، مجرى «بردى / بردو»)[2].

خرج آدم بعد نزاع وتسويل، وقع فى الفخ وعاشر مستغفلاً تلك الهمج، قارب **شجرة البشر** المراد له أن ينتهى وينقرض، والمنهى أن يقربه بالتزاوج منه، ليكوّن **شجرة الخلد** التى له (سلالة من نسله تخلده)، فأدام الكينونة (النفسية) الهمجية بإنتاج ذرية تحمل الأنسنة، والهمجية معاً، كان الأمر أشبه بهندسة جينية، واختلط النسل الإنسانى بالهمجى فأضر نفسه وذريته بإيقاع الخلل فى برنامجه الجينى والروحى، وبالخروج لمكابدة الظرف الموبوء كونياً، هذا عدا أنه فقد **درعه الروحى (اللباس - حسب المسمى القرآنى)**.

---

(1) السابق - ص 17 - 18، ص 40.

(2) حقيقة لا اعلم كيف حددوا هذا المكان بهذه الدقة، وكيف عرفوا أن الجنة بها مغارة، فهل كانوا على مقربة من الحدث أم أن لهم مراسلين؟!

وبعدها عاقب الرب آدم بإهباطه عن الجنة، ثم بعد فترة اهبطت له حواء (إغاثة الله) لتنقل له بشائر قبول توبته، ثم فى مرحلة مباشرة بعد جيل اهبطت الملائكة إناثاً بشريات أخريات مخلقات إنسياً ليتم التزاوج بهن من أبناء آدم الشرعيين.

الرد:

ذكر المجددون أن شجرة المعصية هى شجرة البشر الهمجى، وأن معصية آدم هى معاشرة أنثى من الهمج، ودحض هذا القول الذى لا يستند إلى دليل سهل يسير، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف – 22)، ويقول جل شأنه: ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (طه : 121).

أولاً: الشجرة هنا هى شجرة المعروفة للذهن، تلك الشجرة التى بها ثمار تصلح للأكل، بدليل قوله سبحانه ، فى الآية الأولى: ﴿ذَاقَا﴾ وفى الثانية: ﴿فَأَكَلا﴾ ، فهل ذاق آدم الأنثى الهمجية أم قام بأكلها؟!

وثانياً: إذا فرضنا – وهذا تأويل بعيد – أن التذوق والأكل قد جاءا بمعنى المعاشرة، فهل عاشرت حواء كذلك ذكر من البشر الهمج، وذلك لأنها شاركت آدم فى المعصية بدليل ضمير المثنى فى (ذاقا) و (أكلا).

وثالثاً: قالوا أن آدم بعد المعصية فقد درعه الروحى وهو اللباس حسب المسمى القرآنى، كيف ذلك وقد أخذ آدم وحواء يتغطيان بورق الجنة كما ذكر القرآن الذى يزعم هؤلاء المجددين أنهم من أهله.

وذكروا بعد ذلك أن حواء أهبطت بعد آدم بفترة، كيف ذلك وقد هبطا سوياً بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (من الاية 123 - سورة طه).

وفى النهاية يذكرون أن الملائكة أهبطت إناثاً بشريات أخريات مخلقات إنسياً. لا تعليق.

4- آدم الرسول:

غاير المجددون بين ما أسموه بآدم الإنسان، وهو الذى ذكرناه بالبند الثانى، وآدم الرسول، وهذا فى زعمهم، ليس هو أول إنسان خُلق، فهو ليس آدم الذى عصى، ولكنه أول الرسل التى بعثها الله سبحانه للبشر الإنسان فى التاريخ المعهود ربما قبل أكثر من 8000 سنة، ليعلمهم العلوم الربانية كالتوحيد وزكاة النفس، وأعمال البر والتكافل ويشيد القرى..إلخ(1).

وحجتهم فى هذه المغايرة تكمن فى أن آدم الإنسان - حسب مفهومهم - قد عصى ربه، والرسول يجب أن يكون معصوماً لا يقدم على أية معصية، ويذكرون أن البعض ظن أن آدم لم يعص، وقام يسوغ المسوغات ليبرئه(2).

ويقولون (3):لدينا 25 من وروداً لاسم (آدم) فى كتاب الله، 21 منها المقصود منه آدم الأول (الإنسان) ، كل آيات الخلق الأول، وإسجاد الملائكة

---
(1) السابق - ص 34 - 35.
(2) السابق - ص 125.
(3) السابق : ص 132 - 133.

واستنكاف إبليس وسكن الجنة والخروج منها والمعصية الأولى، فالمقصود منها آدم أبو الناس، بحيث صار الناس جميعا مهما ابتعدوا (بنى آدم)، وهناك آيتان تنطبق على الآدمين كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ (المائدة 27)، وربما قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ (آل عمران: 59) ، وبقيت آيتان (آدم) فيهما ليس آدم الأول، بل آدم الرسول المصطفى، وهما:

1 - ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران : 33).

2- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ (مريم: 58).

وأوردوا عدة حجج تبرر تسمية آدم الرسول بنفس اسم ادم الإنسان الأول، نذكر منها[1].

1 - تيمناً بذاك الاسم.

2- لأن آدم بالسريانية (آدمو) معناه الشبيه والمثيل، مثيل الرب، فكان الاسم أليق انطباقاً بآدم الرسول كونه لم يعص ربه.

3 - ولأن هؤلاء المجددين من معتنقى المذهب الشيعى الذى يؤمن بالرجعة، فإنهم يقولون - فى نهاية المطاف - أن آدم الإنسان الأول الذى عصى ربه قد تاب، ودخل الجنة، ثم بسط الله سبحانه له فى توبته، ولقّاه كلمته رحمته، ووعده المرد إلى جنته، ثم بعد دهر أهبطه الله مرة أخرى بعد تلك التوبة والعودة للجنة، ليكون حجة ورسولاً إلى الناس الذين صاروا موجودين، ليعمر الأرض بنسله الصفى هذه المرة[2].

---

(1) السابق - ص 72.

(2) السابق - ص 347 - 348.

الرد:

قام المجددون هذه المرة بالرد على أنفسهم. وسنبدأ من حيث انتهى كلامهم، فهم فى نهاية المطاف اضطروا أن يعلنوا أن آدم الإنسان هو نفسه آدم الرسول، ولكنهم لم يسلموا بهذا القول إلا بعد أن قالوا بتوبة آدم الأول - وهو نفسه الثانى - ثم موته ودخوله الجنة، وعودته للحياة مرة أخرى وبنفس الاسم ليكون رسولا. يا للعجب، وهم بهذا دحضوا كل حجتهم السابقة، كالتيمن بالاسم - وهو أضعف الحجج - وكون اسم (آدم) معناه مثيل الرب، فالله تعالى يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: 11).

ونقول لهم: قد اعترفتم أن التوبة تمحى المعصية، وأن الله بسط لآدم فى التوبة، فما الحاجة لأن يموت ثم يحيا مرة أخرى، وهذا الحدث - لو صح - هو حدث جلل ما كان القرآن الكريم ليهمله، بل لذكره لنا، حتى لا نظل أكثر من أربعة عشر قرناً لا نعرف هذه الحقيقة الخطيرة حتى ذكرتموها لنا.

والقرآن الكريم لمن يأت ليخف علينا الوقائع الهامة والجوهرية، فكون آدم الإنسان الأول غير آدم الرسول، وكون آدم الإنسان الأول عاد للحياة مرة أخرى، أمور - لو صحت - لما غيبها القرآن عنا، لأن القرآن ما جاء خافيا، بل جاء مبيناً، يقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (من الآية 89 - سورة النحل).

ونقول أخيراً لهؤلاء المجددين، أن فكركم هذا ليس إلا إفساد فى الأرض، بأن أخضعتم النصوص القرآنية - وهى تأبى هذا - لنصوص

الأساطير وأوهام العلم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⑪ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: 11 - 12).

الدورة العقائدية:

نجيب الآن عن التساؤل الذى طرحناه فى أول هذا الفصل، وهو سبب التشابه، أو الاقتراب بين نصوص الأساطير وبين نصوص الدين السماوى.

الإجابة ببساطة تكمن فيما يمكن تسميته (بالدروة العقائدية)، فالدروة العقائدية للإنسان لم تبدأ - كما يعتقد البعض -بالشرك والكفر، وإنما بدأت بالإيمان، فآدم عليه السلام رأى الجنة، وعاش فيها، وعلمه الله سبحانه وتعالى بنفسه، ورأى جزاء مخالفة أوامر الله، وعرف أن إبليس عدو له لذا كان آدم أول البشر المؤمنين، وأول رسول فى الأرض، حيث نعلم أنه عاش حتى بلغ تعداد البشر حوالى 40,000، لذا كانوا فى حاجة إلى هذا الرسول ليعلمهم ما علمه الله سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان لم يدع الإنسان هكذا، فدارت الدورة، من الإيمان إلى الكفر والشرك، ثم إلى الإيمان، وهكذا، فنصوص القرآن تخبرنا فى مواضع يصعب حصرها بإرسال الله عز وجل لرسله كلما تفشى الكفر والشرك.

هذه الرسل كانت تبعث بأخبار من قبلهم، ومن هذه الأخبار بالطبع قصة الخلق، ولكن عندما كان يتفشى الشرك مرة أخرى، كانت تصاغ هذه الأخبار بصيغة الشرك، فقد نجد نفس الخبر فى الكتاب السماوى ونجده كذلك فى الأسطورة ، إلا أن الأول نجده وقد صيغ بعقيدة التوحيد. أما الثانى نجده مصاغاً بصيغة الشرك وتعدد الآلهة.

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عن بعض الكتب أو الصحف السماوية والتى حوت مثل هذه الأخبار فيقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: 18 - 19) والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.



قائمة بأهم المصادر

- أدولف إرمان - ديانة مصر القديمة - ترجمة: د. عبد المنعم أبو بكر و د. محمد أنور شكرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1997.

- ايزابيل فرانكو - أساطير وآلهة (نفثات رع إله الشمس) ترجمة حليم طوسون - مراجعة محمود ماهر طه - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 2004.

- تشارلز داروين - نشأة الإنسان - (والانتقاء الجنسى) المجلد الأول - ترجمة وتقديم : د. مجدى محمود المليجى - المجلس الأ على للثقافة - القاهرة - 2005.

- جورج بوزنر وآخرون - معجم الحضارة المصرية القديمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - القاهرة - 1996.

- خزعل الماجدى - إنجيل سومر - الأردن - 1998.

- ديمترى ميكس وكريستين ميكس - الحياة اليومية للآلهة الفرعونية - ترجمة فاطمة عبد الله محمود - مراجعة: د. محمود ماهر طه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 2000.

- رينيه لابات وآخرون - سلسلة الأساطير السورية - ديانات الشرق الأوسط - ترجمة مفيد عرنوق.

- سهيل قاشا - الحكمة فى وادى الرافدين - لبنان - 2006.

- صموئيل كريمر - اينانا ودموزى (طقوس الجنس المقدس عند السومريين) - سوريا - 1993.

- د. على فهمى خشيم - آلهة مصر العربية - المجلد الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 2006.

- ول ديورانت - قصة الحضارة - جـ 2 - ترجمة زكى نجيب محمود ومحمد بدران - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 2001.

- قسم الدراسات والبحوث - جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية بالبحرين - (بين آدمين - آدم الإنسان وآدم الرسول) نشر دار كيوان - دمشق - الطبعة الأولى - 2009.

- **المصادر الإسلامية:**

- أبو الفداء إسماعيل بن كثير - تفسير القرآن العظيم - القاهرة.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) - القاهرة.

- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - الإتقان فى علوم القرآن - القاهرة.

- الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى - فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

- الجزرى - النهاية فى غريب الأثر - المكتبة العلمية - بيروت.

- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى - صحيح البخارى - القاهرة.



أهم إصدرات المؤلف

1- الشيعة (النشأة السياسية والعقيدة الدينية).

2- المعتزلة (نشأتهم - فكرهم - آراؤهم الفكرية).

3 - زواج المتعة (بين الإباحة والتحريم عند لشيعة وأهل السنة).

4 - الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية.

5 - الرسول ﷺ والسيف (دراسة للنظرية القرآنية فى الجهاد والحرب وتطبيقاتها فى الدعوة المحمدية).

6 - إزهاق الباطل (الرد على شبهات القمص زكريا بطرس).

7 - البوذية (عقيدة دينية أم دعوة إصلاحية).

8 - أساطير سومر وبابل.

9- خلق الكون (بين إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوى)

10 - حمورابى (الملك المشّرع).

11 - ملحمة جلجامش.

12- قصة الطوفان (فى نصوص الأسطورة والتوراة والقرآن).

13- تاريخ وحضارة أرض الرافدين.

الفهرس

خلق الكون

بين

إلحاد الأسطورة وتوحيد الدين السماوى



مكتبة النافذة